١٦٤
البيان
مركز البحوث والدراسات

حماية علماء المالكية لجناب التوحيد

د. أحمد ولد محمد ذي النورين

حماية علماء المالكية لجناب التوحيد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعـة الأولـى

ح

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النورين، أحمد ولد محمد

حماية علماء المالكية لجناب التوحيد./ أحمد محمد النورين. -

الرياض، ١٤٣٤هـ

٩٦ ص ١٧×٢٤ سم

ردمك:٣-٢٢-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- الفقه المالكي ٢- الفقهاء المالكية ٣- التوحيد أ. العنوان

ديوي ٩٢٢,٥٨٢ ١٤٣٤/٢٠١١

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٢٠١١

ردمك: ٣-٢٢-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد جعل الله تعالى خيرة خلقه المتبعين لوحيه، الملتزمين بمنهج نبيه ﷺ، المستسلمين لشرعه المنقادين لأمره أفضل أوليائه، ذلك أن النجاة والسعادة والفوز والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة مرتبط بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله معتقداً وأخلاقاً وعملا، وذل ما التزمه سلف هذه الأمة الصالح، ومنهم إمام دار الهجرة، الذي سلك السبيل الأقوم في اعتقاده وحمايته لجناب العقيدة ورعايته لمنهج التوحيد حتى أضاء بعباراته الفذة وألفاظه البليغة دروب السالكين ومن ذلك قوله: " لن نصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" .

فهي لعمري منهج متكامل، ولقد أحسن حين رد على السائل عن كيفية استواء رب العزة والجلال بقوله: "الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، وفي رده على آخر يريد أن يتزيد أميالاً في الأجر - زعم - فيحرم من المدينة بدل ذي الحليفة؛ إذ يقول: " تلك فتنة، لقد سمعت الله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وعلى هذا كان دأب نجباء المالكية، في صفاء التوحيد والتزام المنهج الرباني وسلوك سبيل المصطفى ﷺ. ولقد جاء هذا الكتاب لإماطة جانب من اللثام عن ذلك.

د. أحمد محمد ذي النورين الحافظ

قيام المجتمع المدني
على التوحيد

كانت المدينة (طابة) المباركة منشأ الدولة الإسلامية قد حباها ربها بما لم يتح لغيرها من مدن الأرض؛ إذ كانت مرتع الإسلام، ودار الهجرة، ومقام النبي ﷺ، فمنحها الله تعالى من الحصانة ما لم يدع أبوابها مفتوحة يلج إليها غثاء المشركين، بل سد عطر الوحي كل منفذ قد يصلها منه زخرف الشرك؛ وأنزل الله جلت عظمته بين لابتيها من الرحمة والرأفة ما لم يجتمع لسواها؛ استجابة لدعاء سيد الأولين والآخرين: "اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة"[(١)]. ولا غرو فهي مأرز الإيمان: "إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها"[(٢)] ذلك الإيمان الذي قد يزايل بعض أفراد مجتمعه كل ذنب إلا الشرك، بعد أن استقر في قلوبهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، وبعد أن مازج نفوسهم قول رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئًا، إلا حلت لها المغفرة، إن شاء الله عذبها، وإن شاء الله غفر لها؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾»[(٣)]. وعلى ذلك تأسس المجتمع الذي رباه سيد الخلق بتوحيد الله تعالى فخالط الإيمان بشاشات قلوب أهله، فاستقر في كنفاتها الخير الراسخ والرجاء العريض والخوف العميق، والحياء الحاضن.. فأصبحت الذنوب لا تقارف فيه إلا نزراً، وإذا وقعت فمن ورائها نسمات التقوى، التي تؤهل للمغفرة،

---

(١) أخرجه البخاري كتاب أبواب فضائل المدينة باب ح(١٨٨٥). ومسلم كتاب الحج باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها ح(١٣٦٩). من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري كتاب أبواب فضائل المدينة باب الإيمان يأرز إلى المدينة ح(١٨٧٦). ومسلم كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وأنه يأرز بين المسجدين ح(١٤٧). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه اللالكائي في السنة (٦/ ١٠٦٨)، وعزاه ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠٩) إلى أبي يعلى الموصلي في مسنده، ومدار الحديث على موسى بن عبيدة الربذي. وقد قال فيه الإمام أحمد: (لا يكتب حديثه)، وقال النسائي: (ضعيف)، وقال ابن حجر: (ضعيف). انظر: ميزان الاعتدال (٤/ ٢١٣)، والتقريب ص: ٣١٥. وهو من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وتقود إلى عفو قيوم السماوات والأرض؛ الذي له الخلق والأمر مهما فعل فقد عدل؛ لأنه المالك الذي قال: ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٠]. فهو الغفار لكل ذنب عدا الشرك به سبحانه؛ يقول علي رضي الله عنه: "ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية؛ يعني: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾"[١]. وقال ابن عمر: "كنا معشر أصحاب النبي ﷺ لا نشك في عذاب آكل مال اليتيم وشاهد الزور وقاطع الرحم حتى نزلت هذه الآية فأمسكنا عن الشهادة"[٢]. وعلى هذا الأصل الكبير أشيدت وشائج المجتمع المدني؛ فكان ولاء كل فرد فيه لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، فلا أحد فيه يتولى أحداً لا يؤمن إيمانه، ولا أحد فيه يتبع غير المنهج الرباني، ولا أحد يخضع لغير نظام شريعة الرحمن، ولا أحد يتلقى ائتساء من غير مشكاة النبوة، كائنة ما كانت العلاقة التي تربطه بذلك المؤتسى به. وإلا فهو الشرك أو النفاق، وأياً كان ذلك فهو الخروج من دائرة الإسلام.

لقد تكون هذا المجتمع المثالي في طيبة الغراء، فكانت منطلق الجهاد، ومبعث إشعاع نور الهداية، بعد أن أحرزت جائزة وجوب الهجرة إليها من دار الحرب- وهي كل دار لا تقوم فيها شريعة الإسلام - ليأرز إليها المؤمنون من كل أصقاع الأرض فيستظلوا براية القيادة الإسلامية ولا يخضعوا لراية الكفر- وهي كل راية غير راية الإسلام.

وبهذا جمعت طيبة بين لابتيها مجتمعاً من الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يجتمع مثله على أرض سواها، فتربوا في أحضان قيادتهم الأمينة وعبوا منها عقيدتهم

---

(١) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة النساء ح(٣٠٣٧). وانظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٤٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٥٥٦).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٤٥٠). وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٨/ ١٨٣).

القويمة. فكانوا أفقه الناس بالوحي، وأعلمهم بالتنزيل، وأبصرهم بأحكام الشرع المطهر، فمازجوا الأسس الأخلاقية الرفيعة بالتوحيد الخالص، فتأصلت في نفوسهم عظمة الخالق، وتعمقت في كيانهم دلالات النبوة، واستقرت في واقع مجتمعهم الإسلامي الرصين تطبيقات الشرع المطهر، الذي تقوم فيه الحياة على العبودية لله وحده. ذلك الشرع الذي جاءت إحدى آخر آياته نزولاً لتعلن كمال الرسالة، وتمام النعمة، وتبين أن النبي ﷺ قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ولتبرهن أن شريعة الله كل لا يتجزأ. سواء منها ما اختص بالتصور والاعتقاد أو ما اختص بالشعائر والعبادات، أو ما تعلق بالحلال والحرام، أو ما ارتبط بالتنظيمات الاجتماعية والدولية. فمجموع ذلك هو «الدين» الذي يقول الله عنه في الآية الآتية إنه أكمله. وهو «النعمة» التي يقول فيها للذين آمنوا: إنه أتمها عليهم. إنه المنهج الرباني الذي ارتضاه الله للمؤمنين، واستبداله بغيره مما صنع البشر يعني رفض ألوهية الله - سبحانه - واعتداء على سلطانه تعالى في أرضه. ذلك ما اعتقده الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فآمنوا بكمال الدين وتمام الشرع حين أنزل الله تعالى عليهم قوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، ففي اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية في حجة الوداع أكمل الله هذا الدين. فما عادت فيه زيادة لمستزيد. وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل. ورضي لهم الإسلام ديناً فمن لا يرتضيه منهجاً لحياته - إذن - فإنما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين. يقول مالك رحمه الله تعالى: مَنْ أَحْدَثَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ سَلَفُهَا؛ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَانَ الرِّسَالَةَ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا؛ فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ ديناً[1].

(١) الاعتصام للشاطبي ص:٤٩٤.

على هذا تكوَّن ذلك المجتمع المتحرر من كل عبوديات الأرض، فلا معبود فيه غير فاطر العبيد. فتهذب داخل أحضانه أَجِلَّةُ الصحابة وعلماؤهم على يدي المربي ﷺ. ودربوا على ذلك المنهج الفريد، الذي يملك وحده إنقاذ البشرية من سفوح الجاهلية ليرتقي بها في المرتقى الصاعد فيبلغ بها إلى تلك القمة السامقة، في مثل ذلك الزمن القياسي؟! ذلك الزمن الذي شهد حشوداً لا مثيل لها في تاريخ البشرية من الإنجازات القائمة واقعاً، بعد أن أشاد الحقائق في الأرواح والتصورات في الأذهان، والتوجيهات في الأفكار والتشريعات في الحياة بتوفيق من الله تعالى.. بعيداً عن الابتداع والتزويق والاستدراك على الشرع المطهر، وقد أجاد حسان بن ثابت رضي الله عنه في وصفه حين قال:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع
سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع[1].

لقد طهرت سرائر الصحابة رضي الله عنهم وطابت خباياهم، وفهموا أن المقاصد إكسير الأعمال فحسنت فعالهم، وتعلقوا بالله تعالى وأرادوا الآخرة وسعوا لها سعيها، وأدوا تكاليفها، ونهضوا بتبعاتها، وأقاموا سعيهم لها على إيمان حقيقي ليس مجرد تمن، ولكنه إيمان وقر في قلوبهم وصدقته أعمالهم. فكانوا خياراً عدولاً لم يحرمهم سعيهم للآخرة من لذائذ الدنيا الطيبة، ولكنهم مدوا أبصارهم إلى آفاق أعلى؛ فلم يكن متاع الأرض هدفهم ولا غايتهم. بل كانوا تجسيداً حقيقياً لقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٤٤٧).

[الإسراء:١٩]، بعد أن استحضروا قول النبي ﷺ "إنما الأعمال بالنيات"[١] وجعلوه نصب أعينهم، فخلصت نواياهم وعملوا بالوحي وطفقوا ينشرونه في حياة النبي ﷺ وبعد مماته. ذلك أنهم أخذوا عنه ﷺ كل شيء رأي العين:"وصلوا كما رأيتموني أصلي"[٢]، "لتأخذوا مناسككم"[٣]، فكان حفظ القرآن ورواية السنة ميدان تنافسهم، وتطبيقهما ساحة تسابقهم، يقول أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: روى الحديث عن النبي ﷺ من الصحابة أربعة آلاف رجل وامرأة، صحبوه نيِّفاً وعشرين سنة بمكة قبل الهجرة، ثم بالمدينة بعد الهجرة؛ حفظوا عنه أقواله وأفعاله، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وقيامه وقعوده، واجتهاده وعبادته، وسيرته، وسراياه ومغازيه، ومزاحه وزجره، وخطبته، وأكله وشربه، ومشيه وسكونه، وملاعبته أهله، وتأديبه فرسه، وكتبه إلى المسلمين والمشركين، وعهوده ومواثيقه، وألحاظه وأنفاسه وصفاته، هذا سوى ما حفظوا عنه من أحكام الشريعة، وما سألوه عنه من العبادات والحلال والحرام، أو تحاكموا فيه إليه[٤]. فامتلأت صدورهم قرآناً وقلوبهم إيماناً وأفئدتهم إحساناً. وقاموا بمهمة الرسل الأولى التي هي حماية جناب التوحيد؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس. لا تبديل

---

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ح(١). ومسلم كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية" وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال ح(١٩٠٧).من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة وكذلك بعرفة وجمع ح(٦٣١). واللفظ له. ومسلم كتاب المساجد باب من أحق بالإمامة ح(٦٧٤). من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الحج باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً. وبيان قوله ﷺ لتأخذوا مناسككم ح(١٢٩٧). من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) المدخل إلى كتاب الإكليل، ص (٧-٨).

فيها ولا تحويل. قال ابن كثير في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر:١١] أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له[١].

هكذا أمر الله ـ جل جلاله ـ نبيه محمداً ﷺ أن يكون أول المسلمين من أمته؛ يقول أبو عبد الله القرطبي عند تفسيره لقول الله جلت عظمته: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر:١٢]؛: وكذلك كان فإنه كان أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام، وحطمها وأسلم لله وآمن به ودعا إليه ﷺ[٢].

إن التوحيد المقصود هو ذلك الذي يطال توحيد الإلهية، ويشمل توحيد العبودية، وينتظم توحيد الأسماء والصفات. فلا انفصال فيه بين الألوهية والربوبية، ولا مجال فيه للشرك في الألوهية ولا في العبادة، ولا مبرر فيه للإلحاد في الأسماء والصفات.. إنه التوحيد الذي حمى النبي ﷺ جنابه حماية محكمة، وسد كل طريق يخل به ويوصل إلى الشرك ولو من بعيد.

إنه التوحيد المؤسس على قواعد ثابتة ثبوت النواميس الكونية، منهجها قويم وصراطها مستقيم؛ يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال: "هذا سبيل الله"، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال: "هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه". وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣]. إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام. بل إن شريعته هي الترجمة الواقعية لعقيدته.. ذلك ما كرسته نصوص الوحيين من خلال عرضها لمنهج الإسلام، يقول النبي ﷺ: "فمن رغب عن سنتي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٨٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٤٢).

فليس مني"[1]. إنه المنهج الذي يعظم أجور المتبعين ويشنع على المبتدعين، فعمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة. كما جاء عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"[2].

لقد قام الصحابة رضي الله عنهم جميعاً أحسن قيام بواجبهم تجاه دين الله -تعالى- حفظاً وتبليغاً ودعوة وجهاداً؛ فكانوا أكثر الخلق خشية لله تعالى، وأرعاهم للشرع، وأحفظهم للسنة، وأكملهم عدالة، وأبعدهم عن الخنا وأنآهم عن الكذب، وأحرصهم على استقامة المسلمين، فجمعوا القرآن واجتمعوا عليه، وحفظوا السنة واستوثقوها، فكان منهم علماء فقهاء أجلة لم يعرف التاريخ لهم نظراء؛ أمثال أبي بكر وابنته عائشة، و عمر بن الخطاب وابنيه عبد الله وحفصة، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام وابنه عبد الله، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، و معاذ بن جبل، وأم المؤمنين أم سلمة، وأنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبي موسى الأشعري، وسلمان الفارسي، و جابر بن عبد الله... رضي الله عنهم أجمعين. لقد تربوا جميعاً في أحضان الرعاية النبوية التي سعت منذ اللحظة الأولى إلى تطهير مجتمعهم الوليد من أتون الشرك وحفظه من أوضار، لتشييد استقامته ورص تماسكه في مثل

---

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح ح(٥٠٦٣). ومسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم ح(١٤٠١). من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سنن الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة ح(٢٦٠٠)، وسنن أبي داود كتاب السنة باب في لزوم السنة ح(٣٩٩١). (وصححه الألباني: صحيح سنن الترمذي: ٢١٥٧).

تلك الظروف الاستثنائية المتشابكة؛ لتوفر الضمانات الحيوية الكفيلة بنموه وحمايته من المضلات وتحصينه من الفتن.

لقد كانت اللبنة الأولى في تثبيت هذا المجتمع متجسدة في الاستسلام لنصوص الوحي كاملة، والحث على التحذير من اجتزائها، والمنع من أخذها تفاريق؛ يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إذا جادلكم أهل البدع بمتشابه القرآن فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله"[1]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية معلقاً على كلمة عمر هذه: فإن المنافق لا يعتقد وجوب اتباع الكتاب والسنة واتباع الإجماع؛ إذ ليس في باطن الأمر متديناً باتباع النص والإجماع، بل يأخذ من النص والإجماع ما يحتج به[2]. وذلك ما يشهد له حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه، قال: إن رسول الله ﷺ تلا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[فصلت:٤١-٤٢] فقال رسول الله ﷺ: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أحب إليه من شيء خرج منه» يعني القرآن[3].

لقد فهم الصحابة رضي الله عنهم أن الحياة في الوحي والعزة في الكفاح لإقامة الحق، والمجد في الجهاد نشراً للخير، والسؤدد في الانتصار لإعلاء كلمة الله تعالى، وعلو الهمة في طلب الشهادة في سبيله.. والفوز في الجنة والكرامة في تحصيل الرضوان..

وتعلموا رضي الله عنهم تأسيساً على ذلك أنه ما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله ﷺ من الأذية والمضايقة في سبيل دعوة التوحيد،

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٤/ ١٩٤).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه ح (٣٦٥١)، وقال عنه: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وصححه الذهبي.

وأنه لا يمكن لأحد يزعم أنه صاحب دعوة وأنه يتأسى في دعوته برسول الله ﷺ، ويستحضر قول الله تعالى في وصف علاقة النبي ﷺ بالمؤمنين: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[التوبة:١٢٨]... لا يمكن لهذا المذكور إن صدق في دعوته أن يضن بنفسه عن أن يصيبها في إشادة جناب التوحيد ما تعرض له النبي ﷺ؛ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ﴾[التوبة:١٢٠]، فأعظم شيء تنبني عليه شئون الأمة ومصالح الملة حماية التوحيد، ولهذا لم يكن لمسلم تحت أي ذريعة أن يفضّل نفسه على نفس النبي ﷺ، فيرغب في الراحة والسلامة ولا يبذل نفسه في الله تعالى، بل عليه أن يصحب الإخلاص في البأساء والضراء، وأن يكابد الأهوال برغبة ونشاط في نشر دين الله تعالى، ويعلم يقيناً أن أعز نفس على الله تعالى وأكرمها نفس النبي ﷺ، وقد تعرضت مع كرامتها للشدة والهول، فوجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها فضلاً عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم حين لم يدخروا نفساً ولا مالاً في نصرة التوحيد أولى الناس بفقه وأعلمهم بشرع؛ لما تكشف لهم من أسرار القرآن ولما شاهدوه من سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، وبما تجلى لهم من آيات الإعجاز وتطبيقات النبي ﷺ العملية أثناء حركته وإياهم بالقرآن. قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[التوبة:١٢٢] فكان منهم فقهاء مكثرون في الفقه والرواية. وقد سلك التابعون منهج الصحابة -رضوان

الله عليهم- في العلم والفقه في أحكام الشريعة، وعنهم أخذوا الكتاب والسنة علماً واتباعاً وسمتاً ودلاً، كما نقلوا عنهم اجتهاداتهم، محتذين بهم فيما وضعوه من ضوابط، وما استخلصوه من قواعد وما استنبطوه من مقاييس. وهكذا كان الأئمة من بعدهم في حرصهم على العمل بالكتاب والسنة، واتباعهم لفهم سلفهم من الصحابة والتابعين ممن عمت الشهادة لهم بالخيرية والصلاح.

ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتعدد الأعراق والأجناس الداخلة إلى الإسلام؛ بدأ المتمسكون بمحجة السلف المتشبثون بمنهج الصحابة -رضي الله عنهم- يتميزون عن غيرهم، وبدأت دائرة الاختلاف بينهم وبين غيرهم تتسع، وطفق بعض فقهاء الأمصار يركن إلى الرأي، فنتجت بعض الفتن وأخذت تتوالد، واستُحدث الجدل، ونشأت المدارس الفقهية وتعددت، فكانت المدينة التي عاش في أكنافها المهاجرون والأنصار موئل السنة ومنبذ البدعة، وكان علماؤها ورثةَ العلم النبوي وامتداداً للرعيل الأول، وكان ممن بزَّ نظراءه في ذلك الإمام مالك الذي لُقِّب بـ(إمام دار الهجرة)، تلك الدار التي كانت زكاتها ظاهرة وعلامات رفعة شأنها باهرة؛ يقول ابن تيمية: (مذهب أهل المدينة النبوية - دار السنة ودار الهجرة ودار النصرة إذ فيها سن الله لرسوله محمد ﷺ سنن الإسلام وشرائعه، وإليها هاجر المهاجرون إلى الله ورسوله، وبها كان الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم - مذهبهم في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أصح مذاهب أهل المدائن الإسلامية شرقاً وغرباً، في الأصول والفروع)[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٩٤).

نشأة المذهب المالكي على التوحيد

في المدينة النبوية قامت جذور التواصل وقت إنشاء المجتمع على التوحيد والإخاء والمحبة والتوادد؛ للنهوض بأعباء دولة موحدة متمكنة منسجمة، ذات تشريع مستقر وأوضاع مرموقة. يقول تعالى واصفاً مكونات ذلك المجتمع الفريد: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩].

وعلى هذا استقامت دار الهجرة، ففتح إمامها عينيه في جو يتجسد الوحي في كل أرجائه؛ توحيداً وتوادداً.. وعلى ذلك تربى متبعو مذهبه، فكانوا من أعرف الخلق بهدي السلف، وأحرصهم على سلامة المعتقد، وأكثرهم بداراً إلى تبيان التوحيد؛ ففي الأسماء والصفات يقول أبو عمر الطلمنكي:(أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤] ونحو ذلك من القرآن: أنه علمه، وأن الله تعالى فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء)[1]. فالله - سبحانه- مع كل أحد، في كل وقت، مطلع على ما يعمل كل مخلوق، بصير بما يأتي العباد أو يذرون. وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب؛ إذ هي كفيلة وحدها أن ترفع مستشعرها وتطهره، وتشغله عن كل أعراض الفانية، كما تجعله يعيش حذراً دائماً وخشية دائمة. ثم طفق يتحدث عن صفة الاستواء فقال: (وقال أهل

(١) العلو للعلي الغفار ص:٢٤٦.

السنة في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]: إن الاستواء من الله على عرشه على الحقيقة لا على المجاز، فقد قال قوم من المعتزلة والجهمية: لا يجوز أن يُسمى الله عز وجل بهذه الأسماء على الحقيقة ويسمى بها المخلوق. فنفوا عن الله الحقائق من أسمائه، وأثبتوها لخلقه، فإذا سُئلوا ما حملهم على هذا الزيغ؟ قالوا: الاجتماع في التسمية يوجب التشبيه. قلنا: هذا خروج عن اللغة التي خوطبنا بها؛ لأن المعقول في اللغة أن الاشتباه في اللغة لا يحصل بالتسمية، وإنما تشبيه الأشياء بأنفسها أو بهيئات فيها كالبياض بالبياض، والسواد بالسواد، والطويل بالطويل، والقصير بالقصير، ولو كانت الأسماء توجب اشتباهاً لاشتبهت الأشياء كلها لشمول اسم الشيء لها، وعموم تسمية الأشياء به، فنسألهم: أتقولون إن الله موجود؟ فإن قالوا: نعم. قيل لهم: يلزمكم على دعواكم أن يكون مشبهاً للموجودين. وإن قالوا: موجود ولا يوجب وجوده الاشتباه بينه وبين الموجودات. قلنا: فكذلك هو حيٌ، عالمٌ، قادرٌ، مريدٌ، سميعٌ، بصيرٌ، متكلمٌ، يعني ولا يلزم اشتباهه بمن اتصف بهذه الصفات)[1].

ثم طفق يجلي جانباً من فوائد معرفة أسماء الله تعالى فقال: (من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله ﷺ المعرفة بالأسماء والصفات وما تتضمن من الفوائد وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء ولا مستفيداً بذكرها ما تدل عليه من المعاني)[2].

وستكون اللوحة أكثر وضوحاً إذا جمعنا أقوال علماء المالكية بدءاً بالإمام مالك الذي كانت الحساسية العقدية لديه بالغة الشدة؛ لذلك رفض الدعاء بمثل

(١) المرجع نفسه.
(٢) فتح الباري (١١/ ٢٢٦).

يا سيدي[1]. رغم أنه اسم ثابت بالسنة[2]. يقول مالك: إنما في القرآن ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [طه:٥]، ما في القرآن أحبُّ إلي؛ ودعاءُ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ[3].

وكراهة الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ للدعاء بهذا الاسم؛ لكونه لم يثبت عنده اسما لله تعالى؛ فلم يعده من الأسماء الحسنى. وعلى ذلك فالأصل الذي بنى عليه الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ كراهته للدعاء بهذا الاسم؛ أصل صحيح، وهو أنه لا يدعى الله ـ تعالى ـ إلا بأسمائه الحسنى الثابتة بالوحي. وأسماؤه ـ جل وعلا ـ توقيفية، غير أن هذا الاسم على الصحيح ثابت، وعليه فيجوز دعاء الله ـ تعالى ـ به[4].

وقد أخرج أبو نعيم في إطار حساسية مالك تلك عن يحيى بن الربيع قال: كنت عند مالك بن أنس ودخل عليه رجل فقال يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق فاقتلوه، فقال: يا أبا عبد الله إنما أحكي كلاماً سمعته، فقال: لم أسمعه من أحد إنما سمعته منك، وعظم هذا القول[5].

(١) البيان والتحصيل (١/ ٤٥٦).

(٢) كما جاء في حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، قال: «انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: " السيد الله تبارك وتعالى "، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: " قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان» أخرجه أبو داود في(السنن) (كتاب الأدب) (باب في كراهية التمادح) حديث رقم (٤٨٠٦) قال ابن حجر (فتح الباري) (٥ / ١٧٩): (رجاله ثقات، وقد صححه غير واحد). وقال المناوي (فيض القدير) (٤ / ١٥٢): (سكت عليه أبو داود ثم المنذري)اهـ.. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢١١). والنسائي في (عمل اليوم والليلة) ص٢٥٠ حديث رقم (٢٤٩) (ذكر اختلاف الأخبار في قول القائل سيدنا وسيدي). من طريق أبي بكر بن نافع حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة ثنا ثابت عن أنس. الحديث بنحوه. وله طريق أخرى عن أنس عند الإمام أحمد (المسند) ٣ / ٢٤١ وطريقان آخران عن حماد به رواهما الإمام أحمد- أيضاً- (المسند) ٣ / ١٥٣ و٢٤٩. قال ابن عبد الهادي (الصارم المنكي) ص ٢٤٦: (وفي المسند بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس... الحديث). والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣/ ٢٢٦).

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ١٨٩).

(٤) انظر: بحث عقدي في لفظ السيد للشيخ يوسف السعيد ص:١٧٨.

(٥) الحلية (٦/ ٣٢٥) وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٢٤٩) من طريق أبي محمد يحيى بن خلف عن مالك، وأورده القاضي عياض في ترتيب المدارك (٢/ ٤٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما مالك بن أنس فنقل عنه من غير وجه الرد على من يقول القرآن مخلوق، واستتابته، وهذا المشهور عنه متفق عليه بين أصحابه[1].

بحساسية التوحيد هذه استمرأ أعلام المالكية الملتزمون بأصول المذهب عقيدة التوحيد وتعظيم السنة على تفاوت بينهم؛ فلم يختلف قولهم في توحيد الإلهية، كما لم يضطرب لهم كلام في توحيد الربوبية، ولم يتعارض لدى الثابتين منهم على المنهج موقف في توحيد الأسماء والصفات.

ولهذا كان الأئمة المتقدمون من أصحاب مالك كعبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب، وأسد بن الفرات وعبد العزيز بن الماجشون، وتلاميذ تلامذته كسحنون وأصبغ بن الفرج، وأتباع مذهبه كأبي عمر بن عبد البر، وابن أبي زيد القيرواني، وأبي عمر الطلمنكي، وأبي بكر محمد بن موهب، وعبد العزيز بن يحيى الكناني، ورزين بن معاوية صاحب تجريد الصحاح، والأصيلي، وأبي الوليد الفرضي، وأبي عمرو الداني، ومكي القيسي، وابن أبي زمنين...كان هؤلاء على عقيدة السلف الصافية. وقد استهلوا إثبات نصاعة عقيدتهم بإبطال الغبش العالق ببعض الأذهان وإثبات الكلام لله تعالى ونفي صفة الخلق عن القرآن. يقول الإمام مالك بن أنس رحمه الله: الله في السماء، وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء[2].

وكذلك تواترت تنقولهم في شأن القائلين بالقدر، وماهم فيه من ضياع وتشتت؛ يقول أبو نعيم عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول لرجل: سألتني أمس عن القدر؟ قال: نعم. قال: إن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[السجدة:١٣] فلا بد أن يكون ما قال الله تعالى[3].

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣١).
(٢) العلو للعلي الغفار ص:١٣٨.
(٣) الحلية (٦/ ٣٢٦).

وقال القاضي عياض: سئل الإمام مالك عن القدرية من هم؟ قال: من قال: ما خلق المعاصي، وسئل كذلك عن القدرية؟ قال: هم الذين يقولون إن الاستطاعة إليهم، إن شاؤوا أطاعوا، وإن شاؤوا عصوا(١).

وأخرج ابن أبي عاصم عن سعيد بن عبد الجبار قال: سمعت مالك بن أنس يقول: رأيي فيهم أن يستتابوا؛ فإن تابوا، وإلا قتلوا. يعني القدرية(٢).

وقال ابن عبد البر: قال مالك: ما رأيت أحداً من أهل القدر، إلا أهل سخافة وطيش وخفة(٣).

وقال القاضي عياض: قال مالك: لا تجوز شهادة القدري الذي يدعو ولا الخارجي، والرافضي(٤).

وكان مالك يكره الفرق المنحرفة عقدياً ويكفر أهلها، ومن ذلك أنه قال حين استشير فِي زَواج القَدَرِيّ: لَا تُزَوِّجه؛ قَال اللهَّ تَعَالَى: ﴿وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ﴾ [البقرة:٢٢١](٥).

وَقَال: من وَصَف شَيْئًا من ذات الله تعالى وأشار إلى شيء من جَسَدِه يَد أَو سَمْع أَو بَصَر قُطِع ذَلِك مِنْه؛ لِأَنَّه شَبّه اللهَّ بنَفْسِه(٦). وَقَال فِيمَن قَال الْقُرْآن مَخْلُوق كافر: فاقْتُلُوه(٧).

وعلى ذلك درج أصحابه يقول أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتقي صاحب مالك المتوفى سنة ١٩١هـ: أرى من قال إن الله لم يكلم موسى أن يستتاب

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٤٨). وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٧٠١).
(٢) الانتقاء ص:٣٤.
(٣) ترتيب المدارك (٢/ ٤٧).
(٤) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٨٨)، الحلية (٦/ ٣٢٦).
(٥) الشفا لعياض (٢/ ٢٧٤).
(٦) المرجع نفسه.
(٧) المرجع نفسه.

فإن تاب وإلا قتل، أراه من الحق الواجب وهو الذي أدين الله عليه(١). قال الإمام أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع المتوفى سنة ٢٢٤هـ: في شأن استواء الله تعالى على عرشة وهو مستو على عرشه وبكل مكان علمه وإحاطته(٢).

وهذا الإمام إسماعيل بن أبي أويس المتوفى سنة ٢٢٦هـ يقول في شأن الموقف الأسلم في القرآن: القرآن كلام الله وعلمه ووحيه وتنزيله، فمن قال مخلوق فهو كافر، هذه مقالة خالي مالك(٣). وَقَد رُوِي أيْضًا عَن الإمام عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب سُحْنُون مِثْلُه فِيمَن قَال لَيْس لله كَلَام أنَّه كافر(٤).

بل كانوا يتوخون غاية الأدب في الألفاظ والتعابير، ويكرهون ما قد يكون له مساس بالتوحيد، ومن ذلك قول يحيى بن إبراهيم الطليطلي المتوفى سنة ٢٥٩هـ في كتاب سير الفقهاء -وهو كتاب جليل غزير العلم(٥)-: كانوا -يعني أئمة المالكية- يكرهون قول الرجل: يا خيبة الدهر، وكانوا يقولون: الله هو الدهر، وكانوا يكرهون قول الرجل رغم أنفي لله، وإنما يرغم أنف الكافر، وكانوا يكرهون قول الرجل: والله حيث كان أو أن الله بكل مكان(٦).

وهذا العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين المالكي المتوفى سنة ٣٧٨هـ يقرر بتبين وتبصر عقيدة السلف في كتابه أصول السنة قائلاً: ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ثم استوى عليه

---

(١) البيان والتحصيل (١٦/ ٣٩٩).
(٢) غاية الأماني في الرد على النبهاني (١/ ٥٧٧).
(٣) ذم الكلام وأهله (٢/ ٦٣).
(٤) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٢٧٤).
(٥) كما وصفه الألوسي في كتابه غاية الأماني في الرد على النبهاني (١/ ٥٧٧).
(٦) المرجع السابق والصفحة نفسها، وهذا التزاماً بما جاء في السنة المطهرة، كما في صحيح مسلم/ كتاب الألفاظ من الأدب/ باب النهي عن سب الدهر/ ح(٢٢٤٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " قال الله عز وجل: يسب ابن آدم الدهر وأن الدهر بيدي الليل والنهار".

كيف شاء[1]. وكان قد قال في كتابه المذكور: حدثني وهب عن ابن وضاح عن زهير بن عباد عن عباد قال: كان كل من أدركته من المشايخ؛ مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وفضيل بن عياض، وعيسى بن يونس، وعبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح وغيرهم ممن أدركت من فقهاء الأمصار، مكة والمدينة والعراق والشام ومصر وغيرها يقولون: القرآن كلام الله، ليس بخالق ولا مخلوق، ولا ينفعه علم حتى يعلم ويؤمن أن القرآن كلام الله ليس بخالق ولا مخلوق[2]. وقال: ومن قول أهل السنة: أن القرآن كلام الله وتنزيله، ليس بخالق ولا مخلوق، منه تبارك وتعالى بدأ، وإليه يعود[3]. ثم نقل عن مسلمة بن القاسم قوله: كلام الله عز وجل منزل مفروق ليس بخالق ولا مخلوق، لا تدخل فيه ألفاظنا وإن تلاوتنا له غير مخلوقة، ومن زعم أن القرآن مخلوق، فقد زعم أن علم الله مخلوق ومن زعم أن علم الله مخلوق فهو كافر[4].

ولا يخفى أن كثيرا مما هوى فيه المتكلمون هو التكلف الأصلع؛ بل هو التقدم بين يدي الله ورسوله، والتغافل البجح عن كون هذا القرآن العربي المبين المعجز وهذا النبي ﷺ مع فصاحته المطلقة وبيانه البليغ واجتهاده في إرشاده للأمة وشدة نصحه في تبليغه لدين الله تعالى يمكن أن يقصد من نصهما خلاف ظاهرهما أو يخاطبا الأمة بما لا تفهم، أو يأتياها بما يوقعها في التشبيه! كيف يكون ذلك من النبي ﷺ وهو المبعوث لإقامة التوحيد في حياة الخلق، وإنقاذ البشر من الشرك؟ ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[النور:١٦-١٧]. فلا داعي إلى التكلف، ولا حاجة إلى تأويل متشابهات القرآن والسنة الصحيحة، بل لا بد من الإيمان بذلك كله على الوجه اللائق بجلال الله تعالى.﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ

(١) أصول السنة ص:٨٨.
(٢) أصول السنة ص:٨٢.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) المرجع نفسه ص: ٨٦-٨٧.

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧].

كذلك كان المقتدون من علماء المالكية بالسلف؛ فهذا أسد بن الفرات -[بن سنان أبو عبد الله المتوفى سنة ٢١٣هـ]- إمام العراقيين بالقيروان كافة، كان مشهوراً بالفضل والدين، ودينه ومذهبه السنة لا يعرف غيرها، قال بكر بن حماد: قلت لسحنون: إنهم يقولون: إن أسد بن الفرات يقول القرآن مخلوق؟ فقال سحنون: والله ما قاله، ولو قاله ما قلناه[1].

وقال أبو سليمان داود بن يحيى: رأيت أسد بن الفرات يعرض التفسير، فتلا هذه الآية: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾[طه:١٣-١٤]؛ فقال عند ذلك أسد: ويح لأهل البدع، هلكت هوالكهم، يزعمون أن الله جل وعز خلق كلاماً، يقول ذلك الكلام المخلوق: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[2].

وقد دون الإمام الذهبي ملخصاً لمناظرة الإمام محمد بن الإمام سحنون -أي: محمد وأبوه- وهما بالمنزلة المعلومة في الهرم المالكي، ونقلها نصاً محققوه، فقالوا: حضر محمد بن سحنون [المتوفى سنة ٢٥٦] يوماً عند علي بن حميد الوزير، وكان علي يبغيه، وكان يجل محمداً ويعظمه ويكبره، وكان في مجلسه جماعة ممن يحسن المناظرة، وأحضر معهم شيخاً قدم من المشرق يقال له أبو سليمان النحوي، صاحب الكسائي الصغير، وكان يقول بخلق القرآن، ويذهب إلى الاعتزال، فقال علي بن حميد الوزير لمحمد: يا أبا عبد الله إن هذا الشيخ وصل إلينا من المشرق، وقد تناظر معه هؤلاء فناظره أنت، فقال محمد: تقول أيها الشيخ أو تسمع؟ فقال له الشيخ: قل يا بني، فقال محمد: أرأيت كل مخلوق هل يذل لخالقه؟ فسكت الشيخ ولم يحر جواباً، ومضى وقت طويل وانحصر ولم يأت بشيء؟ فسر بذلك علي بن حميد وأهل المجلس. فسئل ابن سحنون أن يبين لهم

(١) طبقات علماء إفريقية ص:٨٢. وترتيب المدارك (٣/ ٣٠١).
(٢) ترتيب المدارك (٣/ ٣٠١).

معنى سؤاله هذا، فقال إن قال إن كل مخلوق يذل لخالقه فقد كفر؛ لأنه جعل القرآن ذليلاً؛ لأنه يذهب إلى أنه مخلوق، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤١]. وإن قال إنه لا يذل، فقد رجع إلى مذهب أهل السنة؛ لأنه لا يذهب في هذه الحالة إلى أنه مخلوق[١].

وقال محمد بن أبي زمنين: ومن قول أهل السنة أن القرآن كلام الله وتنزيله، ليس بخالق ولا مخلوق، منه تبارك وتعالى بدأ وإليه يعود[٢].

وقال: وقال ابن وضاح: ولا يسع أحداً أن يقول كلام الله قط حتى يقول: ليس بخالق ولا مخلوق، ولا ينفعه علم حتى يعلم ويوقن أن القرآن كلام الله ليس بخالق ولا مخلوق، منه عز وجل بدأ وإليه يعود، ومن قال بغير هذا فقد كفر بالله العظيم[٣].

وقال: وقال مسلمة بن القاسم: كلام الله عز وجل منزل مفروق ليس بخالق ولا مخلوق لا تدخل فيه ألفاظنا، وإن تلاوتنا له غير مخلوقة؛ لأن التلاوة هي القرآن بعينه فمن زعم أن التلاوة مخلوقة، فقد زعم القرآن مخلوقاً، ومن زعم أن القرآن مخلوقا، فقد زعم أن علم الله مخلوق، ومن زعم أن علم الله مخلوق فهو كافر[٤].

قال أبو مصعب الزهري: القرآن ليس بمخلوق وهو مذهب عبد الملك بن الماجشون[٥].

وهذا عبد الملك بن الماجشون القرشي مولاهم المتوفى سنة ٢١٢هـ يقول: سمعت من أدركت من علمائنا يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق[٦].

---

(١) رياض النفوس (١/ ٣٥٠-٣٥١). وسير أعلام النبلاء محققاً بإشراف الأرنؤوط (١٣/ ٦٢).
(٢) أصول السنة ص:٨٢.
(٣) المصدر نفسه ص:٨٦.
(٤) المصدر نفسه ص:٨٦-٨٧.
(٥) ترتيب المدارك (٣/ ١٤١).
(٦) المصدر نفسه.

هذا وقد كان أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني شيخ المالكية؛ وهو الملقب بمالك الصغير، الذي ألف أهم مصنفات المالكية وأضخمها؛ إذ جاء على قائمة كتبه كتاب النوادر والزيادات، واختصاره للمدونة، وكتابه العتبية، وكتاب الاقتداء بمذهب مالك، ومن مصنفاته التي لها تعلق بالعقيدة: مقدمة رسالته، وكتابه الثقة بالله والتوكل على الله، ورسالة في الرد على القدرية، ورسالة في التوحيد... توفي رحمه الله تعالى سنة ٣٨٦هـ وقد عد من أبرز علماء المغرب الإسلامي الذين اشتهروا بالتزام عقيدة التوحيد والعمل على نشرها، ومن كلماته الذائعة في شأن القرآن: فمما اجتمعت الأئمة عليه من أمور الديانة، ومن السنن التي خلافها بدعة وضلالة؛ أن كلامه صفة من صفاته، ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد، وأن الله عز وجل كلم موسى بذاته، وأسمعه كلامه لا كلاماً قام في غيره[١]، وتأكيداً منه على قدسية القرآن وتعظيمه لشأنه منع السفر به إلى أرض الكفار قائلاً: اتفق الفقهاء أنه لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو في السرايا والعسكر الصغير المخوف عليه[٢]. وقال في شأن المعية: وأنه [تعالى] فوق سماواته على عرشه دون أرضه، وأنه في كل مكان بعلمه[٣].

وقد لخص أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي المتوفى: ٣٩٩هـ تحت باب في الإيمان بصفات الله وأسمائه من كتابه أصول السنة عقيدة المالكية، تلخيصاً لا غبار عليه؛ حيث قال: واعلم أن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به تبارك وتعالى عن نفسه علماً، والعجز عما لم يدع إيماناً، وأنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه، وعلى لسان نبيه، وقد قال: وهو أصدق

(١) غاية الأماني (١/ ٢٨٣).
(٢) النوادر والزيادات (٣/ ٣٣-٣٤).
(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص:١٥١

القائلين: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص:٨٨]، وقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[الأنعام:١٩]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨]، وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[الحجر:٢٩]، وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور:٤٨] وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه:٣٩]، وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، وقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[النور:٣٥]، وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[الحديد:٣]. ومثل هذا في القرآن كثير، فهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه، وله وجه ونفس وغير ذلك كما وصف به نفسه، ويسمع ويرى ويتكلم، الأول ولا شيء قبله، والآخر الباقي إلى غير نهاية لا شيء بعده، والظاهر العالي فوق كل شيء ما خلق، والباطن بطن علمه بخلقه تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، حي قيوم، ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾..."(١).

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: ذكر رسول الله المسيح بين ظهراني الناس فقال: "إن الله ليس بأعور، وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية"(٢).

لقد كانت مقدمة رسالة ابن أبي زيد وشرحها للإمام القاضي عبد الوهاب بن نصر

---

(١) أصول السنة ص: ٦٠.

(٢) أخرجه البُخَارِيّ كتاب التَّوْحِيد بَاب قَوْل الله تَعَالَى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، وقَوله جلّ ذكره: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ح(٧٤٠٧). من هَذَا الطَّرِيق بِلَفْظ: (ذكر الدَّجَّال عِند النَّبِي صلى الله عليه وَسلم فَقَالَ: "إن الله لَا يخفى عَلَيْكُم، إن الله لَيْسَ بأعور -وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عينه- وَإِن الْمَسِيح الدَّجَّال أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَن عينه عنبة طافية"). وَرَوَاهُ مُسلم كتاب الْفِتَن وأشراط السَّاعَة بَاب الدَّجَّال وَصفته وَمَا مَعَه ح(١٦٩)، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعاً وَفِيه: "إن الله تَعَالَى لَيْسَ بأعور، أَلا وَإِن الْمَسِيح الدَّجَّال أعور الْعين الْيُمْنَى كَأَن عينه عنبة طافئة".

البغدادي المتوفى سنة ٤٢٢هـ دليلاً صارخاً على رعاية أئمة المالكية لجناب التوحيد وذودهم عن السنة. يقول ابن أبي زيد في خطبة رسالته المذكورة: باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات؛ من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان: أن الله إله واحد، لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة:٢٥٥]، وهو العليم الخبير، المدبر القدير، السميع البصير، العلي الكبير، وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو بكل مكان بعلمه(١). وقد وصف الإمام الذهبي ابن أبي زيد بقوله: وكان رحمه الله على طريقة السلف في الأصول، ولا يدري الكلام، ولا يتأول(٢).

وتأكيداً لاستقامة ابن أبي زيد رحمه الله على عقيدة السلف، والصدع بها في مؤلفاته جميعها يقول عنه ابن القيم: وكذلك ذكر مثل هذا في نوادره وغيرها من كتبه، وذكر في كتابه المفرد في السنة تقرير العلو واستواء الرب تعالى على عرشه بذاته أتم تقرير. فقال: فصل فيما اجتمعت عليه الأمور من أمور الديانة من السنن التي خلافها بدعة وضلالة إن الله سبحانه وتعالى اسمه له الأسماء الحسنى والصفات العلى لم يزل بجميع صفاته وهو سبحانه موصوف بأن له علما وقدرة وإرادة ومشيئة أحاط علما بجميع ما بدا قبل كونه فطر الأشياء بإرادته وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، وأن كلامه صفة من

(١) مقدمة رسالة القيرواني (ص٤)، باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات، ط: مطبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الثانية (١٣٦٨هـ).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ١٧).

صفاته ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد وأن الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام بذاته وأسمعه كلامه لا كلاما قام في غيره وأنه يسمع ويرى ويقبض ويبسط وأن يديه مبسوطتان ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[الزمر:٦٧]، وأن يديه غير نعمته في ذلك وفي قوله سبحانه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[ص:٧٥]،) وأنه يجيء يوم القيامة بعد أن لم يكن جائيا والملك صفا صفا لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وأنه يرضى ويحب التوابين ويسخط على من كفر به ويغضب فلا يقوم شيء لغضبه وأنه فوق سمواته على عرشه دون أرضه وأنه في كل مكان بعلمه وأن الله سبحانه كرسيا كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾[البقرة:٢٥٥]، وكما جاءت به الأحاديث أن الله سبحانه يضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء قال مجاهد كانوا يقولون ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض وأن الله سبحانه يراه أولياؤه في المعاد بأبصارهم لا يضاهون في رؤيته كما قال عز وجل في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾[القيامة:٢٢-٢٣]، وقال رسول الله ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا﴾[يونس:٢٦]، هو النظر إلى وجهه الكريم وأنه يكلم عبادة يوم القيامة ليس بينه وبينهم واسطة ولا ترجمان وأن الجنة والنار داران قد خلقتا أعدت الجنة للمؤمنين المتقين والنار للكافرين الجاحدين ولا يفنيان والإيمان بالقدر خيره وشره وكل ذلك قد قدره ربنا سبحانه وتعالى وأحصاه علمه وأن مقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه تفضل على من أطاعه فوفقه وحبب الإيمان إليه وزينه في قلبه فيسره له وشرح له صدره ونور له قلبه فهداه و﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾[الأعراف:١٧٨]. وخذل من عصاه وكفر به فأسلمه ويسره فحجبه وأضله: ﴿وَمَن

يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[الكهف:١٧]، وكل ينتهي إلى سابق عمله لا محيص لأحد عنه وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد ذلك بالطاعة وينقص بالمعصية نقصا عن حقائق الكمال لا محبط للإيمان ولا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بنية ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنة ... إلى أن قال: وكل ما قدمنا ذكره فهو قول أهل السنة وأئمة الناس في الفقه والحديث على ما بيناه، وكله قول مالك، فمنه منصوص من قوله، ومنه معلوم على مذهبه(١)، إلى آخر ما نقل عنه رحمهم الله تعالى جميعاً.

ولقد كانت كتب القاضي عبد الوهاب في العقيدة أصولاً في ذلك. ومنها: التمهيد والإنصاف.

وهذا أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد المعروف بالباقلاني سنة المتوفى ٤٠٣هـ -وإن صنف أشعرياً- فإنه يقول: فإن قال قائل: أتقولون: إنه في كل مكان؟ قيل: معاذ الله، بل هو مستو على عرشه، كما أخبرنا في كتابه، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[طه:٥]، وقال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[فاطر:١٠]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الملك:١٦]. ولو كان في كل مكان، لكان في بطن الإنسان، وفمه، وفي الحشوش، والمواضع التي نرغب عن ذكرها، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن خلقه، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض، وإلى خلفنا، وإلى يميننا، وشمائلنا، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه، وتخطئة قائله.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ١٥٠-١٥٥).

ثم قال بعد ذلك: وصفات ذاته لم تزل ولا يزال موصوفاً بها، وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة، والوجه، واليدان، والعينان، والغضب، والرضا[1]. وهو القائل: ويجب أن يعلم أن صانع العالم جلت قدرته واحد أحد، ومعنى ذلك أنه ليس معه إله سواه، ولا يستحق العبادة إلا إياه[2].

ومن المالكية المشهورين بإثبات عقيدة السلف أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي المتوفى سنة ٤٢٩هـ، حيث قال: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته. وقال أيضاً: أجمع أهل السنة على أنه تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماء وعلمه في كل مكان، ثم قال: وأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤]، ونحو ذلك من القرآن بأن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستو على عرشه، كيف شاء[3].

أما الحَافِظ إِمَام الْقُرَّاء أَبُو عَمْرو عُثْمَان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤هـ صَاحب التَّيْسِير فقد قال فِي أرجوزته الَّتِي وسمها بعُقُود الدّيانَة:

كلم مُوسَى عَبده تكليماً ... وَلم يزل مُدبرا حكيماً
كَلَامه وَقَوله قديم ... وَهُوَ فَوق عَرْشه الْعَظِيم
وَالْقَوْل فِي كِتَابه الْمفصل ... بِأَنَّهُ كَلَامه الْمنزل
على رَسُوله النَّبِي الصَّادِق ... لَيْسَ بمخلوق وَلَا بخالق[4]

أما أبو القاسم عبد الله بن خلف المقري الأندلسي المالكي المتوفى سنة ٤٥٥هـ فقد قال في الجزء الأول من كتابه الاهتداء لأهل الحق والاقتداء من شرح المخلص

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٥/ ٩٨-٩٩).
(٢) الإنصاف ص:٣٣.
(٣) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٢١)، واجتماع الجيوش الإسلامية ص:٧٦.
(٤) العلو للعلي الغفار ص:٢٤٩.

للشيخ أبي الحسن القابسي رحمه الله تعالى في شرح حديث النزول عن مالك عن ابن شهاب عن أبي عبد الله الأغر وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا- حين يبقى ثلث الليل الآخر- فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفر فأغفر له"[1]. قال: في هذا الحديث دليل على أنه تعالى في السماء على العرش فوق سبع سماوات من غير مماسة ولا تكييف؛ كما قال أهل العلم، ودليل قولهم أيضاً من القرآن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[السجدة:٤]، وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٤٢]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾[السجدة:٥]، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[المعارج:٤]، وقوله لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[آل عمران:٥٥]، وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾[المعارج:٢-٣]؛ والعروج هو الصعود. قال مالك ابن أنس رحمه الله تعالى: الله عز وجل في السماء، وعلمه في كل مكان لا يخلو من علمه مكان[2].

وفي إطار هذا وإبطالاً لما استمرأه بعض متأخرة المالكية من التأويل؛ بناء على ما يعتور أحرف الجر من الاشتراك في المعنى جاءت الأمثلة القرآنية كثيرة للبرهنة على دحض ما ذهب إليه أولئك المؤولة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، أي على جذوع النخل، وكما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦] أي: من على السماء؛ يعني على العرش، وكما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب الدعاء نصف الليل ح(٦٣٢١). ومسلم كتاب الصلاة باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ح(٧٥٨).

(٢) غاية الأماني في الرد على النبهاني (١/ ٥٥٨)، واجتماع الجيوش الإسلامية ص:٨٩.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[التوبة:٢] أي: على الأرض[1]. وقد سبقت الإشارة أنه حين قيل لمالك ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥] كيف استوى؟ قال مالك رحمه الله لسائله: استواؤه معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سوء[2].

وهذا الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري الأندلسي المالكي المتوفى سنة ٤٦٣هـ يبين عقيدته في التوحيد والإيمان؛ من خلال إثباته للصفات التي ينفيها الأشاعرة؛ حيث قال رحمه الله تعالى: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك ولا يجدون فيه صفة محصورة[3]. وقد قال حين انتهى إلى شرح حديث نزول الله تعالى السابق من موطأ الإمام مالك[4]: وفيه دليل على

(١) العرش للذهبي (٢/ ٤٥٣).
(٢) التمهيد (٧/ ١٣٨).
(٣) التمهيد (٧/ ١٤٥).
(٤) ونص حديث النزول عَنْ أَبِي هريرة رضي الله عنه أن النبي قَالَ يَنْزِل رَبّنَا كُل لَيْلَة إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا... الحَدِيث المتقدم، وقد رواه مالك في الموطأ، كتاب القرآن، باب ما جاء في الدعاء، ح (٣٠)، ١/ ٢١٤. وعنه الشيخان كما تقدم؛ البخاري في صحيحه كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، ح (١١٤٥)، وكتاب التوحيد، باب قوله الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، ح (٧٤٩٤). ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، ح (٧٥٨). وهو حديث كثير الطرق، متواتر من جهة النقل، كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٢٨)، حيث قال: (حديث النّزول هذا صحيح الإسناد لا يختلف أهل الحديث في صحته، وهو حديث منقول من طرق متواترة، ووجوه كثيرة من أخبار العدول عن النبي ﷺ).
وهو من أشهر أدلة السلف على علو الله تبارك وتعالى؛ لأن النزول إنما يكون من أعلى، كما أن الصعود إنما يكون من أسفل. وقد اتفق أئمة السلف على إثبات هذه الصفة لله تبارك وتعالى على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، مؤمنين أن نزوله لا يشبه نزول المخلوقين، فهو مستو على عرشه، بائن من خلقه كما أخبر جل شأنه، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وينزل عشية عرفة، وينزل يوم القيامة لفصل القضاء، ولا منافاة بين استوائه سبحانه وعلوه، وبين نزوله؛ لأنه ينزل نزولاً يليق بجلاله وعظمته لا يدرك له المخلوقون كيفية، ولا كنهاً. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- مبيناً ما يجب اعتقاده من حديث النزول: (اتفق سلف الأئمة وأئمتها، وأهل العلم بالسنة والحديث على تصديق ذلك، وتلقيه بالقبول، ومن قال ما قاله الرسول ﷺ فقوله حق وصدق، وإن كان لا يعرف حقيقة ما اشتمل عليه من المعاني، كمن قرأ القرآن ولم يفهم ما فيه من المعاني، فإن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ). انظر: إثبات صفة العلو. لابن قدامة، تحقيق: أحمد الغامدي ص:١٨٦.

أن الله عز وجل في السماء على العرش من فوق سبع سماوات، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم: إن الله عز وجل في كل مكـــان، وليس على العرش. والدليل على صحة ما قاله أهل الحق في ذلك قول الله عز وجل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]. وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[السجدة:٤]. وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[فصلت:١١][1].. وذكر جملة نصوص دالة على العلو. إلى أن قال: وهذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة. وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء، وقولهم في تأويل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: استولى، فلا معنى له؛ لأنه غير ظاهر في اللغة. ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، والله لا يغالبه ولا يعلوه أحد، وهو الواحد الصمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله عز وجل إلى الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات، وجل الله عز وجل عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين. والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه، قال أبو عبيد في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ قال: علا. قال: وتقول العرب: استويت فوق الدابة، واستويت فوق البيت. وقال غيره: استوى أي: انتهى شبابه واستقر، فلم يكن في شبابه مزيد[2].

ثم قال: الاستواء: الاستقرار في العلوّ، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه فقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾[الزخرف:١٣]، وقال

---

(١) التمهيد (٧/ ١٢٩).

(٢) التمهيد (٧/ ١٣١).

تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾[هود:٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾[المؤمنون:٢٨]. وقال الشاعر:

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة وقد حلّق النجم اليمانيّ فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأوّل فيه أحد استولى؛ لأن النجم لا يستولي. وقد ذكر النضر بن شميل- وكان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة- قال: حدثني الخليل - وحسبك بالخليل- قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا، فرد علينا السلام، وقال: استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال، فقال لنا أعرابيّ إلى جانبه: إنه أمركم أن ترفّعوا، فقال الخليل: هو من قول الله ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩]، فصعدنا إليه[١].

وقال في الرد على استدلال أهل التأويل بقول الله عز وجل: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[المجادلة:٧]؛ قال: فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية؛ لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حملت عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية: هو على العرش وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله[٢].

وهذا المذهب الذي أبطله ابن عبد البر أي: تأويل استوى باستولى، هو مذهب أكثر الأشاعرة. وقد بالغوا في الاحتجاج له، والرد على من خالفهم في الذي ذهبوا إليه من شطط التأويل.

ورداً للصاع بأملأ منها بالغ ابن عبد البر في دحض حججهم وقد تحقق له رحمه الله تعالى ما أراد، ثم عمل على حشد الأدلة -كما مر- لإثبات علو الله جلت عظمته، وكان مما قال في ذلك: ومن الحجة أيضاً في أنه عز وجل على العرش فوق السماوات السبع؛ أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق (٧/ ١٣٨- ١٣٩).

رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون ربهم تبارك وتعالى. وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم. وقد قال ﷺ للأَمَة التي أراد مولاها عتقها وكانت عليه رقبة مؤمنة فاختبرها رسول الله ﷺ بأن قال لها: "أين الله"؟ فأشارت إلى السماء: ثم قال لها: "من أنا"؟ قالت: رسول الله. قال: "اعتقها فإنها مؤمنة"[1]. فاكتفى رسول الله ﷺ منها برفعها رأسها إلى السماء، واستغنى بذلك عما سواه[2]. فأثبت رحمه الله علو الله على خلقه، ولا شك في أن هذا الاعتقاد الذي بينه ابن عبد البر وأثبته بالحجج التي لا مطعن فيها يخالف عقائد الأشاعرة جملة وتفصيلاً، ويردها عدماً جملةً وتفصيلاً. ذلك أنهم أي الأشاعرة من غريب صنعهم أنهم اتفقوا على تأويل الصفات، وجعلها على المجاز لا على الحقيقة، إلا سبع صفات سموها الواجبة. بل إن كثيراً من الأشاعرة يرى أن حمل نصوص الصفات على الحقيقة كفر، وقادهم هذا المهيع الأعوج والسبيل الأهوج إلى الزعم بأن الأخذ بظواهر الفرقان فسوق[3].

وفي ذلك يقول ابن عبد البر: ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله أو صح عن رسول الله أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه[4].

أما ابن رشد القرطبي الجد أبو الوليد المتوفى سنة ٥٢٠ هـ، والملقب بشيخ المذهب وهو فقيه ومحدث شرح سنن النسائي ومشكل الآثار للطحاوي؛ فكان على منهج المحدثين من السلف في إثبات العقيدة، وله كلام في فتاويه المطبوعة انتقد فيه

---

(١) رواه مسلم كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ح(٥٣٧). عن معاوية بن الحكم السلمي.

(٢) التمهيد (٧/ ١٣٤).

(٣) انظر: أضواء البيان (٧/ ٢٦٧).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٧/ ١١٧-١١٨).

منهج الأشاعرة في إثبات عقيدة المتكلمين، ومع ذلك أنصفهم بعدل كجماعة من أهل السنة قد انحرفوا في جوانب، وكان ممن أثبت لله الاستواء وفسره بالعلو، وسفه قول من فسره بالاستيلاء[1].

وقد علق على قول مالك: وإنما بنى عمر بن عبد العزيز هذا البناء "يعني الحجرة الشريفة" حين كان الناس يصلون إليه، وجعلوه مصلى. قائلاً: أما الصلاة إلى قبر النبي ﷺ فهو محظور؛ لما جاء عن النبي ﷺ من قوله: "اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[2]، فبناه عمر بن عبد العزيز محدداً على هيئة لا يمكن من صلى إلى القبلة استقباله[3].

لقد كان ابن رشد الجد من أجدر أعلام المالكية بدراسة عقيدته التي جاءت ضمن كتابه المقدمات الممهدات، غير أنه لم يحظ بما يستحق من الاهتمام؛ لأن جبلة المالكية وكثير من أتباع المذاهب الأخرى الاحتفاء بالمختصرات والحواشي والتقريرات دون المطولات. ولذلك لم تجد عقيدة ابن رشد المذكورة رغم أهميتها كثيراً من العناية من قبل حملة العقيدة الصحيحة، وإن شرحها محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي المتوفى سنة ٩٤٢هـ شرحاً غير متلائم مع فضلها ونصاعتها.. سوى أن شهاب الدين أحمد بن غانم النفراوي المتوفى سنة ١١٢٠هـ في كتابه الفواكه الدواني بشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني؛ ضمن الفصل الأول من شرحه لها حديثاً بين فيه بعضاً من جوانب عقيدة التوحيد.

وقد نقل الإمام ابن القيم عن العلامة محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى ٦٧١هـ أقوالاً غاية في النصاعة ووضوح المعتقد، عزاها له في تفسيره، منها قوله:

---

(١) انظر: البيان والتحصيل (١/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب ٥٥ ح(٤٣٥-٤٣٦). ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٣١). عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم.

(٣) البيان والتحصيل (١٧/ ٦٢٥-٦٢٦).

وقد كان الصدر الأول لا ينفون الجهة، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى، كما نطق كتابه وأخبر رسوله ﷺ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على العرش حقيقة، وخص العرش بذلك دون غيره؛ لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته، كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عن الكيف بدعة، وكذلك قالت أم سلمة[1]... ثم ذكر كلام أبي بكر الحضرمي في رسالته التي سماها بالإيماء إلى مسألة الاستواء وحكايته عن القاضي عبد الوهاب: أنه استواء الذات على العرش، وذكر أن ذلك قول القاضي أبي بكر بن الطيب الأشعري كبير الطائفة، وأن القاضي عبد الوهاب نقله عنه نصاً، وأنه قول الأشعري وابن فورك في بعض كتبه، وقول الخطابي وغيره من الفقهاء والمحدثين. ثم قال: قال القرطبي: وهو قول أبي عمر بن عبد البر والطلمنكي وغيرهما من الأندلسيين، وتابع ابن القيم قائلاً: ثم قال بعد أن حكى أربعة عشر قولاً: وأظهر الأقوال ما تظاهرت عليه الآي والأخبار، وقال جميع الفضلاء الأخيار: إن الله على عرشه كما أخبر في كتابه وعلى لسان نبيه بلا كيف، بائن من جميع خلقه. هذا مذهب السلف الصالح فيما نقل عنهم الثقات[2].

وقال في شرحه لحديث "أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصِم"[3]: هذا الشخص الذي يبغضه الله هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق، وردّه بالأوجه

---

(١) يشير إلى قول أمّ سلمة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ قالت: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر.
قال شيخ الإسلام: (وقد رُوي هذا الجواب عن أمّ سلمة -رضي الله عنها- موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يُعتمد عليه).انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢٨٠-٢٨١). ولم أعثر على هذا الكلام في الجامع لأحكام القرآن. فلعل ابن قيم الجوزية إنما نقله منه بالمعنى. والله أعلم.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المظالم باب قول الله تعالى: ﴿وهو ألد الخصام﴾[البقرة:٢٠٤] ح(٢٤٥٧). ومسلم كتاب العلم باب في الألد الخصم ح(٢٦٦٨).

الفاسدة، والشُّبه الموهمة، وأشدُّ ذلك الخصومة في أصول الدين، كما يقع لأكثر المتكلِّمين المعرضين عن الطرق التي أرشد إليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسلف أُمّته، إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة، وقوانين جدليّة، وأمور صناعية، مدار أكثرها على آراء سُوفسطائية، أو مناقضات لفظية، ينشأ بسببها على الآخذ فيها شُبَه ربما يعجز عنها، وشكوكٌ يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالمٍ بفساد الشبهة لا يقوى على حلها، وكم من منفصلٍ عنها لا يدرك حقيقة علمها، ثمَّ إن هؤلاء قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لا يرتضيها البُله ولا الأطفال، لما بحثوا عن تحيُّز الجواهر والألوان والأحوال، فأخذوا فيما أمسك عنه السلف الصالح من كيفيات تعلقات صفة الله تعالى[1]. -إلى أن قال -: ولا فرق بين البحث عن كيفية الذات وكيفية الصفات، ومن توقف في هذا فليعلم أنه إذا كان عجز عن كيفية نفسه مع وجودها، وعن كيفية إدراك ما يدركُ به؛ فهو عن إدراك غيره أعجز، وغاية علم العالم أن يقطع بوجود فاعل لهذه المصنوعات منزَّه عن الشبيه، مقدس عن النظير، متصف بصفات الكمال، متى ثبت النقل عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه وسكتنا عما عداه، كما هو طريق السلف، وما عداه لا يأمن صاحبه من الزلل، ويكفي في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين ما ثبت عن الأئمة المتقدمين كعمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس والشافعي، وقد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا في الجوهر والعَرَض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين، فمن رغب عن طريقهم فكفاه ضلالاً[2]. قال: وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك، وبعضهم إلى الإلحاد، وبعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات، وسبب ذلك إعراضهم عن نصوص الشارع، وتطلُّبهم حقائق الأمور من

(١) التعليقات السنية على العقيدة الواسطية ص:١٠٧-١٠٨.

(٢) المصدر السابق.

غيره، وليس في قوة العقل ما يدرك ما في نصوص الشارع من الحِكم التي استأثر بها، وقد رجع كثيرٌ من أئمتهم عن طريقهم، حتى جاء عن إمام الحرمين أنه قال: ركبتُ البحر الأعظم، وغصتُ في كلِّ شيءٍ نهى عنه أهل العلم في طلب الحق فراراً من التقليد، والآن فقد رجعتُ واعتقدتُ مذهب السلف[١].

ومن علماء المالكية المغاربة الذين اشتهروا بالانتصار لمذهب السلف ومعارضة ما درج عليه الأشاعرة في ميدان الاعتقاد: الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي الفاسي المتوفى سنة ١١٣٦هـ؛ حيث ألف كتابه جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر[٢]، وقد قرر فيه عقيدة السلف، ورد من خلاله على الأشاعرة، وحاول دحض مزاعم السبكي.

وأما كمال الدين محمد بن حبيب الله الشنقيطي الذي اشتهر بلقبه المجيدري بن حب الله اليعقوبي المتوفى سنة ١٢٠٤هـ فقد لخص منهجه العقدي بصفة عامة، قائلاً: اعلم يا مكلف أن الله أوجب عليك أن توحده فتعتقد يقيناً بدليل الكتاب والسنة أو هما معاً أن الله موجود لا شبه له مع غيره في ذات ولا صفة ولا فعل ولا اسم ولا حكم ولا عبادة ولا غير ذلك، فهو واحد لا يقبل الشرك في شيء، وصفاته ـ تعالى ـ على الحقيقة، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه واستواؤه على عرشه، وكل صفة وصف الله بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ﷺ فَصِفْه بها على الوجه اللائق بجلاله وكماله ولا تؤول[٣]. وهكذا لم يتوانَ المجيدري في ردِّه على ما زعمه الأشاعرة من تقسيم صفات الله تعالى إلى واجبة وسلبية ونفسية ومعنوية، حيث قال: وكون الواجب من صفاته ثلاثة عشر منها ست سلبيات ومنها سبع يقال لها المعاني لم يرو عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه

(١) المرجع نفسه ص:١٠٨-١٠٩.
(٢) وآخر العهد بشأنه أنه لا زال مخطوطاً.
(٣) مبين الصراط المستقيم للمجيدري ص:٦٧.

رضي الله عنهم[(١)].

وعلى ذلك حدد المجيدري أسباب الضلال في فهم صفات الله تعالى قائلاً: اعلم أن أشد ما أضل الخلق هو قياس الغائب على الشاهد، حتى أحالوا على الله ما لم تدركه عقولهم، ولم يعلموا أنه وهم متباينون غاية المباينة..[(٢)].

وعلى هذا الأساس نظم المجيدري ـ رحمه الله تعالى ـ عقيدة التوحيد تعبيراً عن المنهج السلفي لطائفة كبيرة من علماء المالكية بإقليم شنقيط، قائلاً:

آي الكتاب وأخبار النبي وما ... جاء الثقات به عن صالح السلف
ما اعتاض عنها سوى أعمى البصيرة عن ... نهج الحنيفية البيضاء ذو جنف
رين على القلب يكسوه السواد كما ... يكسو المداد سواداً أبيض الصحف
فالمصطفى حثنا عند اختلافهم ... على التمسك بالقرآن ذي الشرف
وبالذي سنَّ أو سنَّتْ صحابته ... طراً وحذرنا من بدعة الخلف
مرجمات ظنون غير مجدية ... شيئاً عن الحق بل تفضي إلى التلف
فالحق إياك أن تعدل سواه به ... لا يعدل اللؤلؤ المكنون بالخزف[(٣)]

ومن أعلام المالكية المتأخرين ممن كان من أتباع السلف العلامة أحمد بن علي بن حسين بن مشرّف الأحسائي المالكي المتوفى سنة ١٢٨٥هـ. وقد نظم المقدمة العقدية لرسالة ابن أبي زيد القيرواني بقصيدة بسيطة بديعة، جاء في مطلعها:

الحمدُ لله حمداً ليس مُنْحَصِرَا ... على أياديه ما يخفى وما ظهرَا
ثم الصلاةُ وتسليمُ المهيمنِ ما ... هبَّ الصَّبَا فأدرَّ العارضَ المَطَرَا

---

(١) المرجع نفسه ص:٦٨.
(٢) المرجع نفسه ص:٦٩.
(٣) المرجع نفسه.

إلى أن قال ناظماً باب ما تعتقدُه القلوب وتنطق به الألسنُ من واجب أمور الديانات:

وأول الفرض إيمانُ الفؤاد كذا نُطقُ اللسان بما في الذِّكر قد سطرا

أنَّ الإله إلهٌ واحد صَمد فلا إله سوى من للأنام برا

رب السموات والأرضين ليس لنا ربٌّ سواه تعالى من لنا فطرا

إلى أن قال:

إنَّ العلوَّ به الأخبارُ قد وَرَدَتْ عن الرسول فتابع من روى وقرا

فالله حق على المُلك احتوى وعلى العرش استوى وعن التكييف كن حذرا

والله بالعلم في كلِّ الأماكن لا يخفاه شيءٌ سميعٌ شاهدٌ ويَرَى

وأنَّ أوصافَه ليست بمُحدَثة كذاك أسماؤه الحُسنى لِمَن ذكرَا

وأن تنْزيلَه القرآنَ أجمعَه كلامُه غيرُ خلق أعجز البشَرَا

وَحيٌ تكلَّم مولانا القديمُ به ولم يزل من صفات الله مُعْتَبَرَا

يُتلَى ويُحمل حفظاً في الصدور كما بالخطِّ يُثبِتُه في الصُّحف مَن زَبَرَا

وأنَّ موسى كليمُ الله كلَّمه إلهُه فوق ذاك الطور إذ حضرَا

فالله أسمعه مِن غير واسطة من وصفه كلمات تحتوي عِبَرَا[1]

وأما الشيخ سيدي باب بن الشيخ سيدي الشنقيطي المتوفى سنة ١٣٤٢هـ فقد أعلن أن الصواب في العقيدة رفض التأويل الكلامي والإيمان بما حواه الكتاب والسنة وجعله عقيدة وشريعة ومنهجاً وسلوكاً، ففي المعتقد لا تشبيه ولا تأويل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف.. وفي الشرائع لا استقلال لآراء الفقهاء بتشريع، وإنما تعرض

(١) قطف الجنى الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني ص:٤٩-٥٠.

هذه الآراء على المصدرين فما وافقهما قبل، وما عارضهما ردَّ ورفض، بعيداً عن تقليد غير المعصوم، في تحصن واحتماء بالقرآن وصحاح السنن من مضلات الأهواء والبدع[1].

لقد كان لبابه الحظ الأكبر والنصيب الأوفى في دفع البدع ودحضها وإظهار السنن والعمل بها، فقد وجد غالبية الناس في بلاده يدينون بالعقيدة الوسطى لأبي الحسن الأشعري، فطفق يعالج ذلك بكل ما أتيح له من وسائل ويرد عليه، فردَّ ما ذهب إليه الأشاعرة من التأويل خوفاً من إيهام التشبيه، قائلاً:

ما أوهم التشبيه في آيات — وفي أحاديث عن الثقاة
فهي صفات وُصِف الرحمنُ — بها وواجب بها الإيمان
ثم على ظاهرها نبقيها — ونحذر التأويل والتشبيها
قال بذا الثلاثة القرون — والخير في اتباعهم مقرون

كما دحض البدع وشنع على دعاتها، وأعلى صوت الحسبة في وجه المنكرات، فقال:

كن للإله ناصراً — وأنكر المناكرا
وكن مع الحق الذي — يرضاه منك دائرا
ولا تعد نافعاً — سواءه أو ضائرا
واسلك سبيل المصطفى — ومت عليه سائرا
فما كفى أولنا — أليس يكفي الآخرا

(١) انظر: أحمد بن ديديه، النزعة السلفية في شعر باب بن الشيخ سيديا ص:٤. وهو بحث لا زال مطبوعاً على الآلة الكاتبة.

ثم عرج على المبتدعين من أهل التصوف داعياً إلى الإنكار عليهم، ومحرضاً على مفاصلتهم، ومحذرا من الخزعبلات التي يروجون لها، قائلاً:

وكن لقوم أحدثوا ... في أمره مهاجرا
قد موهوا بشبه ... واعتذروا معاذرا
وزعموا مزاعما ... وسودوا دفاترا
واحتنكوا أهل الفلا ... واحتنكوا الحواضرا
وأورثت أكابر ... بدعتها أصاغرا
فاحكم بما قد أظهروا ... فما تلي السرائرا
وإن دعا مجادل ... في أمرهم إلى مرا
فلا تمار فيهم ... إلا مراء ظاهرا

وفي إطار ذلك لا يتردد باب في جهره بالحض على السنة ومحاربة ما سواها، فيقول:

آمن أخي واستقم ... ونهج أحمد التزم
واجتنب السبل لا ... تغررك أضغاث الحلم
لا خير في دين لدى ... خير القرون قد عدم
أحدثه من لم يجب ... قطع بأنه عصم
من بعدما قد أنزلت ... "اليوم أكملت لكم"(1)

(1) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:3]

وبعـــدما صـــح لـــــدى جمـــع عـــلى غـــدير خـــم[1]

ومن علماء المالكية المغاربة الأفذاذ الذين عرفوا باعتقاد السلف ونبذ ما خالفه من العقائد: العلامة الفقيه عبد الله بن إدريس السنوسي الفاسي المتوفى سنة ١٣٥٠هـ. يقول عبد الحفيظ الفاسي في ترجمته له: العالم العلامة المحدث الأثري السلفي الرحال المعمر أبو سالم.... سلفي العقيدة أثري المذهب عاملاً بظاهر الكتاب والسنة، نابذاً لما سواهما من الآراء والفروع المستنبطة، منفراً من التقليد، متظاهراً بمذهبه قائماً بنصرته داعياً إليه، مجاهراً بذلك على الرؤوس، لا يهاب فيه ذا سلطة، شديداً على خصمائه من العلماء الجامدين وعلى المبتدعة والمتصوفة الكاذبين، مقرعاً لهم، مسفهاً أحلامهم، مبطلا آراءهم، مبالغا في تقريعهم، ولم يرجع عن ذلك منذ اعتقده، ولا فل من عزمه كثرة معاندتهم له، وتلك عادة من ذاق حلاوة العمل بظاهر الكتاب والسنة[2].

أما العلاّمة الحجة الحافظ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الملقب: آبه بن خطور، المتوفى سنة ١٣٩٣هـ فقد قال: اعلموا أنَّ هذه الصفة التي هي الاستواء صفةُ كمال وجلال تمدّح بها ربُّ السموات والأرض، والقرينة على أنّها صفة كمال وجلال أنَّ الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلاّ مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله التي هي منها[3].

---

(١) المرجع السابق نفسه، وأشار بقوله وبعدما صح لدى جمع على غدير خـم . إلى حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: " قام رسول الله ﷺ يومًا فينا خطيبًا . بماءٍ يُدعَى خُمًّا . بين مكةَ والمدينةِ . فحمد اللهَ وأثنى عليه . ووعظ وذكَّر . ثم قال " أما بعدُ . ألا أيها الناسُ ! فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيَ رسولُ ربِّي فأُجيبُ . وأنا تاركٌ فيكم ثقلَينِ : أولُهما كتابُ الله فيه الهدى والنورُ، فخذوا بكتاب الله . واستمسِكوا به "، فحثَّ على كتابِ الله ورغب فيه . ثم قال " وأهلُ بيتي . أُذكِّرُكم اللهَ في أهلِ بيتي . أُذكِّرُكم اللهَ في أهلِ بيتي . أُذكِّرُكم اللهَ في أهلِ بيتي "...) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل علي بن أبي طالب/ ح (٢٤٠٨).

(٢) رياض الجنة (٢/ ٨١-٨٢).

(٣) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص:١٥.

وهو الذي ناقش الشبهة التي زعمها بعض المؤولة في طرفي الآية الرابعة من سورة الحديد؛ حيث سرد الشبهة ثم قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[الحديد:٤] يدل على أنه تعالى مستوٍ على عرشه عالٍ على جميع خلقه، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[الحديد:٤] يوهم خلاف ذلك.

والجواب: أنه تعالى مستوٍ على عرشه كما قال بلا كيف ولا تشبيه، استواء لائقًا بكماله وجلاله، وجميع الخلائق في يده أصغر من حبة خردل، فهو مع جميعهم بالإحاطة الكاملة والعلم التام ونفوذ القدرة سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا، فلا منافاة بين علوه على عرشه ومعيته لجميع الخلائق.

ألا ترى -ولله المثل الأعلى- أن أحدنا لو جعل في يده حبة من خردل أنه ليس داخلاً في شيء من أجزاء تلك الحبة، مع أنه محيط بجميع أجزائها ومع جميع أجزائها، والسموات والأرض ومن فيهما في يده أصغر من حبة خردل في يد أحدنا، وله المثل الأعلى سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا، فهو أقرب إلى الواحد منا من عنق راحلته، بل من حبل وريده، مع أنه مستوٍ على عرشه، لا يخفى عليه شيء من عمل خلقه جل وعلا[1]. وهذا كلام تشد له الرحال؛ إذ هو غاية في النفاسة.

وقائله هو من ذكر -رحمه الله تعالى- أن القرآن العظيم دلّ على أن مبحث الصفات يرتكز على ثلاثة أسس، من أتمها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي جاء به النبي ﷺ واعتقده أصحابه والتابعون لهم من السلف الصالح، ومن أخلّ بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلّ بحسب مستوى إخلاله. وذلك ما دلّ عليه صريح القرآن العظيم ومنصوص سنة سيد الأنام ﷺ:

الأساس الأول: تنزيهه - جلّ وعلا - عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]،

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص:١٩١.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[الإخلاص:٤]،﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

الأساس الثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه؛ لأنّ الله تعالى لا يصفه أعلم به من الله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[البقرة:١٤٠].

والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنّه لا أعلم بالله بعد الله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقّه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم:٣-٤]. وقد شدد الشيخ رحمه الله تعالى النكير على من أخذ بأحد هذين الأصلين دون الآخر، وبين عمق ضلالته وزيف ما ذهب إليه.

وأوضح أن مثله في الضلال من أثبت الصفات لله -تبارك وتعالى- ولكنه شبه صفات الباري بصفات المخلوقين.

ومن الأدلة التي حشدها للبرهنة على رسوخ هذين الأصلين قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١].

إن المعنى الذي تدل عليه هذه الآية أن الله جلت قدرته لم يزل متصفاً بالسمع والبصر اللائقين بجلال الله وكماله، وأسماع المخلوقات وأبصارها تناسب حالهم، فلا تشابه بين صفاته جلت عظمته وصفات المخلوقين.

أما الأساس الثالث: فهو قطع الأطماع عن محاولة إدراك الكنه أو تصور حقيقة الكيفية؛ لأنّ ذلك مستحيل. والوقوع فيه مفض إلى الزيغ والضلال. وبين الشيخ أن الله تعالى نص على ذلك، فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[طه:١١٠]؛ وبهذا نفى جنس أنواع الإحاطة عن الكيفية، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن ربّ العالمين(١).

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ٣١) وما بعدها.

ذلك أن المخلوق سيظل قاصراً غاية القصور وعاجزاً غاية العجز عن معرفة حقائق ذات الله تعالى وكنه صفاته جلت عظمته سبحانه.

ومن المتأخرين من علماء المالكية المقتدين بهدي السلف الإمام العلامة البحر، محمد سالم بن محمد عالي بن عبد الودود، الذي لم يعرف العصر مثله علماً، وموسوعية، وحفظاً، ونظماً، وشعراً المتوفى رحمه الله تعالى سنة ١٤٢٩هـ؛ حيث يقول في مقدمة نظمه المشهور لمختصر خليل، الذي سماه: التسهيل والتكميل لفقه متن خليل، وتوجد مقدمته في العقيدة مطبوعة ومتداولة بشرح الشيخ محمد الحسن بن الددو. وقد سميت هذه المقدمة اعتقاد السلف، وأُفردت بالطبع ومما جاء فيها:

بالبدءِ باسمِ الله في التقديمِ ... والوصف بالرحمنِ والرحيمِ
قال محمدٌ بسالم شُفِعْ ... فَجْلُ محمدٍ بعَالٍ قد تُبِعْ

إلى أن قال:

وما نقولُ في صِفاتِ قُدسهِ ... فرعُ الذي نقولهُ في نَفسه
فإن يقُلْ جهميهُم كيفَ استوى ... كيفَ يجي فقل لهُ كيفَ هُوَا

إلى أن يقول:

يأتي يجيْ يكشفُ عن ساقٍ يضع ... قَدَمَهُ على جهنَّمَ يَسَعْ
بفضلهِ الخلقُ يَداهُ بالعطَا ... مبسوطتانِ كَيفَ شاءَ بَسَطا
كلتاهُمَا في يُمنِها يمينُ ... فهو بذا مِن خَلقِهِ يَبِين
يَرى ولا يَراهُ مِنا ذو بَصر ... حتى يموتَ مثلَ ما جَا في الخَبر
يَسمعُ يُبصرُ يُحبُّ يَعجبُ ... يَضحكُ يَرضى يَستجيبُ يَغضبُ

يَغارُ أن يَزنِيَ عبدٌ أو أمهْ ... لهُ ويَستحْيِيْ ألا مَا أكْرَمهْ

وليسَ يَستحيِي من الحقِ ولا ... من ضَربِهِ ما كالبَعوُضِ مَثلا

ثم يقول:

وليسَ يأذنُ لشيءٍ أذَنَهْ ... إلى تلاوةِ نَبِيٍّ حَسَنَهْ

ولخلوفُ فمِ ذِي الصومِ الزَّكِيْ ... أطيبُ عِندَهُ مِنَ المسكِ الذَّكِي

إلى أن قال:

أسماؤه الحسنى على الصفاتِ ... دلَّتْ فَذلَّتْ أوجُهُ النُّفاةِ

فأثبِتوا من وَصفِهِ ما السَّلفُ ... أثبتَ وانفوا ما نَفى ثمَّ قِفوا

واجتنبوا الشِّركَ الجَليِّ والخَفي ... ولو بِما فيِهِ اختلافُ السَّلفِ

فأفرِدُوهُ جلَّ بالعباده ... لا تُشركوا في نَوعِها عِبادهْ

فلا تُسَمُّوا ولداً عَبد علي ... أو تَنذِروا لصالحِ أو لِولي

ولا تَمَسُّوا قبراً أوْ تَمَسَّحوا ... ولا تَطوفوا حولَهُ أو تَذبحوا

لا تَعبدوهُ بِسوى ما قَد شَرَعْ ... قد نتقرَّبُ بجلبِ ما نَفَعْ

أو دَفعِ ما ضَرَّ لِمخلوقٍ ولا ... نَبلُغُ ذا مِنْ مَالِكِ المُلكِ عَلا

وبِالرُّبوبيَّةِ وَحِّدُوهُ.. ... فهْو الذي تَعنو لهُ الوُجُوهُ

لا تجعلوا إذا دَعوتُم وسطا ... بينكُمُ وبَينَهُ فهْوَ خَطا

ذَلِكَ والإيمانُ كُلٌّ قَدْ شَمِلْ ... عقْداً بِقلبٍ مَعَ قولٍ وَعَمَلْ

بنِيَّةٍ في سُنةٍ وبِالعَمَلْ ... زيادة ونقصاً المِثلَ احتَمَلْ

إلى آخرها..

وبالجملة فإن علماء المالكية المتشبثين بمنهج إمام دار الهجرة كانوا على مدى التاريخ من أكثر أهل الأرض نصاعة معتقد وكمال توحيد، يقول ابن القيم: الوجه الرابع عشر: أنَّ الجهمية لَمَّا قالوا إنَّ الاستواءَ مجازٌ صرَّح أهل السُّنَّة بأنَّه مستوٍ بذاته على عرشه، وأكثرُ مَن صرَّح بذلك أئمَّةُ المالكية، فصرَّح به الإمام أبو محمد بن أبي زيد في ثلاثة مواضع من كتبه، أشهرها الرسالة، وفي كتاب جامع النوادر، وفي كتاب الآداب، فمَن أراد الوقوف على ذلك فهذه كتبه، وصرَّح بذلك القاضي عبد الوهاب، وقال: إنَّه استوى بالذات على العرش، وصرَّح به القاضي أبو بكر الباقلاني وكان مالكيًا، حكاه عنه القاضي عبد الوهاب نصًّا، وصرَّح به أبو عبد الله القرطبي في كتاب شرح أسماء الله الحسنى، فقال: ذكر أبو بكر الحضرمي من قول الطبري يعني محمد بن جرير وأبي محمد بن أبي زيد وجماعة من شيوخ الفقه والحديث، وهو ظاهر كتاب القاضي عبد الوهّاب عن القاضي أبي بكر وأبي الحسن الأشعري، وحكاه القاضي عبد الوهاب عن القاضي أبي بكر نصًّا، وهو أنَّه سبحانه مُستوٍ على عرشِه بذاته، وأطلقوا في بعض الأماكن فوق خلقه.

قال: وهذا قولُ القاضي أبي بكر في تمهيد الأوائل له، وهو قولُ أبي عمر بن عبد البر، والطلمنكي وغيرهما من الأندلسيّين، وقول الخطّابي في شعار الدِّين. وقال أبو بكر محمد بن موهب المالكي في شرح رسالة ابن أبي زيد: قوله إنَّه فوق عرشه المجيد بذاته، فَمَعْنَى فَوق وعَلى عِنْد جَمِيع الْعَرَب وَاحِد. وَفِي الْكتاب وَالسّنة تَصْدِيق ذَلِك وَهُوَ قَوْله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤]، وَقَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، وَقَالَ:﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[النحل:٥٠]، وسَاق حَدِيثي الْجَارِيَة[١] والمعراج إِلَى سِدْرَة الْمُنْتَهى[٢][٣].

(١) في إشارتها إلى السماء.

(٢) كما جاء عن أنس رضي الله عنه في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة ص: ٣٥٠ وما بعدها.

قال الإمام الذهبي: كان علماء المغرب لا يدخلون في الكلام، بل يتقنون الفقه أو الحديث أو العربية، ولا يخوضون في المعقولات، وعلى ذلك كان الأصيلي، وأبو الوليد بن الفرضي، وأبو عمرو الطلمنكي، ومكي القيسي، وأبو عمرو الداني، وأبو عمر بن عبد البر، والعلماء[1].

فليس بعد الوحي إلا الرأي، ذلك أن الإنسان إنما تعبده الله تعالى بالوحي المؤسس لتوحيد العبادة الذي من أجله بُعث الرسل وأنزلت الكتب، وشرعت الشرائع، وأقيمت سوق الجهاد وخلقت الجنة والنار، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]. وعلى هذا المبدأ بذل أئمة المالكية وعلماؤهم كغيرهم من المسلمين أعظم الوسع في ترسيخ التوحيد، وأبلوا بلاء حسناً في الذب عن جنابه، وأدوا الأمانة في إبلاغه، وليس المقصود أن غيرهم لم تكن له في ذلك جهود تذكر فتشكر، يقول العلامة مبارك الميلي رحمه الله: وليست الدعوة إلى التوحيد بمذهب خاص، ولكنه دين الله العام[2].

كانت عناية المالكية كبيرة بتوحيد العبادة حيث بالغوا في كثرة النقول في توضيح معناها، وتبيان شموليتها لسائر القرب الظاهرة والباطنة واستحقاق الله تعالى إياها وحده.

كما ربطوا كثيراً من أسباب الشرك بالغلو في الأفاضل، سواء كانوا أحياء أو ميتين. ووزعوا الشرك نوعين: أحدهما الشرك الأكبر الذي ينافي أصل التوحيد وهو المخرج من الملة، والثاني الشرك الأصغر الذي ينافي كمال التوحيد، وإن لم يكن مخرجاً من الملة، إلا أنه الوسيلة الأخطر إلى الأكبر.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٥٧).

(٢) رسالة الشرك ص:٥٧.

اعتصام المالكية بالسنة وشدة تحريهم في نقلها:

بما أن علماء المالكية استقوا علومهم في أجواء علمية مفعمة بعبير السنة ورَوْح الخلافة الراشدة وأريج حياة الصحبة النقية؛ فقد طبعتهم الاستهامة في تحصيل العلوم منذ أوقات مبكرة اقتداء بإمام المذهب الذي بدأ - رحمه الله تعالى - في طلب العلم مبكراً، حيث ذَكَر عن نفسه أنه كان يأتي نافعاً وهو غلام، كما رُئِيَ في حلقة ربيعة وفي أذنه شَنْف. قال القاضي عياض: وهذا يدل على ملازمته الطلبة من صغره[1].

وقد كانت أمه من أحرص الناس على توجيهه إلى طلب العلم، ذلك أنها ذات مرة ألبسته ثيابه وأرسلته إلى حلقة ربيعة، ثم قالت له: تعلَّمْ من أدبه قبل علمه[2]. وهذا من شدة ذكائها؛ إذ البداءة بالوسائل قبل المقاصد، والعلم أساسه كمال الأدب وجمال الخلق وحسن السمت. وبهذا التأسيس نشأ مالك نابغة اجتمعت له الحافظة والذكاء. وتميز بلزوم النص والتزام منهج المدرسة العمرية؛ في بعدها عن الافتيات ومعارضة النص بالعقل؛ يقول صدقة بن عبد الله كان عمر بن الخطاب يقول: "إن أصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا: لا نعلم، فعارضوا السنن برأيهم"[3]، ورغم تفوق المدرسة العمرية في هذا السبيل فإنه يعد المنهج العام للصحابة رضي الله عنهم، فعن يحيى بن أسيد أن علي بن أبي طالب أرسل عبد الله بن عباس إلى أقوام خرجوا فقال له:

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/ ١٣٣).

(٢) عودة الحجاب (٢/ ٢٠٧).

(٣) أصول السنة لابن أبي زمنين ص:٥٢.

"إن خاصموك بالقرآن فخاصمهم بالسنة"[1]. وعن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود: "لا يأتي عليكم عام إلا الذي بعده شر منه، لا أعني عاما أخصب من عام ولا أمطر من عام، ولكن ذهاب علمائكم وخياركم، ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم فيهدم الإسلام ويثلم"[2]. وقد رسخ هذا التصور عن أصول الابتداع لدى أغلب علماء الأمة، قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ: أَهْلُ الرَّأْيِ هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ[3].

ظل علماء المالكية يحاربون البدعة ويعدونها أصل الانحراف، متمسكين في ذلك بقول ابن مسعود رضي الله عنه: "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم"[4]، وَقول ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: "مَنْ أَحْدَثَ رَأْيًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ، وَلَمْ تَمْضِ بِهِ سُنَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَمْ يَدْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَ الله عَزَّ وَجَلَّ"[5]. فرحم الله أولئك السلف الأئمة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من علماء المنهج القويم من مالكية وغيرهم، وجزاهم الله عن الإسلام خير الجزاء.

وما أجمل وصاة ابن عباس رضي الله عنهما لعثمان بن حاضر الأزدي؛ قال: قلت لابن عباس: أوصني، قال: "عليك بالاستقامة، اتبع ولا تبتدع"[6].

لقد بدأ الاستيثاق والتحري مبكراً عند المالكية؛ حيث كان منهج مالك في التلقي إما بطريق العَرْض أو عن طريق السماع، يقول ابن سعد: سئل مالك عن حديثه: أسماعٌ هو؟ فقال: منه سماع، ومنه عَرْض[7]. وكلتا الحالتين كان الحفظ فيها أساس التلقي، وقاية للسنة من عاديات الزمن التي حذر منها ابن عباس

(١) المرجع نفسه، ص:٥٣.
(٢) سنن الدارمي: (١/ ٢٧٩).
(٣) الاعتصام ص:١٣٥.
(٤) أصول السنة لابن منده ص:٥٦.
(٥) ذم الكلام وأهله (٢/ ١٢٣).
(٦) أصول السنة لابن أبي زمنين ص:٥٧.
(٧) الكفاية في علم الرواية ص:٢٧٠.

رضي الله عنهما؛ حيث قال: "لا يأتي على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدع وتموت السنن"(١).

لقد استماتت علماء المالكية في الذود عن السنة وعلمائها. وفي إطار ذلك صنف الشيخ العلامة ضياء الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن عمر القرطبي رسالة سماها "زجر المفتري على أبي الحسن الأشعري"، رد فيها على مبتدعة هجوا الإمام الأشعري، وقد أعجب بها الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد فقرظها(٢).

وَحذرا مما حدث ابن مسعود رضي الله عنه أن أمور المسلمين ستؤول إليه: " قُرَّاؤُكُمْ يَذْهَبُونَ، وَيَتَّخِذُ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا يَقِيسُونَ الْأُمُورَ بِرَأْيِهِمْ"(٣)؛ كان مالك يقول: إن هذا البلد -يعني المدينة- إنما يُقرَأ فيه على العالم(٤)، وكانت لمالك ضوابط منهجية في انتقاء من يتعلم على أيديهم، حيث قال: أدركت بهذا البلد مشيخةً أهلَ فضل وصلاح يحدِّثون، ما سمعت من أحد منهم شيئاً قط، قيل له: لِمَ يا أبا عبد الله؟ قال: كانوا لا يعرفون ما يحدثون(٥).

إضافة إلى هذا المنهج المنقطع النظير في التحري والتثبت كان شعار مالك العقدي مبنياً على قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وعلى ما حدث به أبو هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتى رجل فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟...-ثم ذكر الحديث وفيه-: قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لا

(١) أصول السنة لابن أبي زمنين ص:٥٨.
(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ٤٢٣). ومطلع القصيدة هو:
أسِير الْهوى ضلت خطاك عَن الْقَصْد ... فها أَنْت لَا تهدى لخير وَلَا تهدي
(٣) الاعتصام ص:١٣٥.
(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٢/ ٢٠).
(٥) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١/ ٦٦).

تراه فإنه يراك"[1]. وعلى ما نقله أبو أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "خلق الله الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء فأخذ أهل اليمين بيمينه، وأهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين"[2]، وعلى ما نقله النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع ربك، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه"[3]. وعلى ما رواه صفوان بن سليم قال: حدثني رجال من الأنصار ما منهم رجل إلا حدثني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه خرج عن بعض نسائه، فإذا حلقة في المسجد... ثم ذكر حديثاً وفيه: "... إني سألت ربي أن يدخل معي من أمتي من يقر به عيني الجنة، فأعطاني سبعين ألفا، ثم استزدته فزادني مع كل ألف سبعين ألفا، ثم استزدته فأشار إلي بكفيه هكذا وهكذا"، فقال أبو بكر حسبنا يا رسول الله، فقال عمر: يا أبا بكر دعنا ندخل الجنة، قال أبو بكر: يا عمر وما تبقي حفنتان من حفنات الله، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[4] إيماناً وعقيدة. وعلى قول عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: "السُّنَّةُ مَا سَنَّهُ الله وَرَسُولُهُ، لَا تَجْعَلُوا خَطَأَ الرَّأْيِ سُنَّةً لِلْأُمَّةِ"[5]، وتبعاً لذلك جاء قول تلميذ مالك عبد الرحمن بن القاسم: لا ينبغي لأحد أن يصف الله إلا بما وصف به نفسه في القرآن، ولا يشبه يديه بشيء، ولا وجهه بشيء، ولكن يقول: له يدان كما وصف نفسه في القرآن، وله وجه كما وصف نفسه، يقف عندما وصف به نفسه في الكتاب، فإنه تبارك وتعالى لا مثل له ولا شبيه، ولكن هو

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ح(٤٧٧٧). ومسلم كتاب الإيمان، باب أركان الإيمان ح(٩).

(٢) انظر: الرد على الجهمية باب ذكر علم الله تعالى ص:١٤٣.

(٣) أصول السنة ص:٦٩.

(٤) أصول السنة لابن أبي زمنين ص: ٦٨.

(٥) الاعتصام ص:١٣٥.

الله لا إله إلا هو كما وصف نفسه، ويداه مبسوطتان كما وصفها ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]؛ كما وصف نفسه. وأضاف قائلاً: وكان مالك يعظم أن يحدث أحد بهذه الأحاديث التي فيها: "أن الله خلق آدم على صورته" وضعفها(١). فكان تأسيس عقيدة مالك ومن انتهج نهجه على ما حدث به أبو موسى الأشعري رضي الله عنه حين قال: كنا في مسير مع النبي ﷺ فإذا أهبط الناس كبروا، وإذا علو كبروا، فقال رسول الله ﷺ: "أيها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً"(٢). وعلى ما نقله هشام بن عروة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله ثلاثاً"(٣).

(١) أصول السنة لابن أبي زمنين ص:٧٥. ومن أشهر الأحاديث المشار إليها هنا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك، النفر من الملائكة، جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن". وهو غير قابل للتضعيف لاتفاق الشيخين عليه؛ إذ رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء في باب خلق آدم وذريته، الحديث رقم(٣٣٢٦). وفي كتاب الاستئذان في باب بدء السلام، الحديث رقم(٦٢٢٧). ورواه مسلم في كتاب الجنة في باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، الحديث رقم(٢٨٤١). كما أنه لا داعي لتضعيفه أو تأويله، بل اللازم تصديقه والإيمان بمحتواه على الوجه اللائق بجلال الله تعالى.

(٢) أخرجه البُخَارِيّ كتاب المغازي بَاب غَزْوَة خَيْبَر ح(٤٢٠٥)، قَالَ: (حَدثنَا مُوسَى بن إِسْمَاعِيل، حَدثنَا عبد الْوَاحِد، عَن عَاصِم، عَن أَبِي عُثْمَان، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: "لما غزا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلم خَيْبَر -أو قَالَ: لما توجه رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلم- أشرف النَّاس على وَاد فَرفعُوا أَصْوَاتهم بِالتَّكْبِير: الله أكبر، الله أكبر. لَا إِلَه إِلَّا الله. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلم: "أربعوا على أنفسكُم، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِباً، إِنَّكُم تدعون سميعًا بَصِيرًا قَرِيباً وَهُوَ مَعكُمْ..." الحَدِيث. وَأخرجه أَيْضاً فِي كتاب الدَّعْوَات، بَاب الدُّعَاء إِذا علا عقبَة، حَدِيث (٦٣٨٤)، وَفِي كتاب التَّوْحِيد، بَاب ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾، حَدِيث (٧٣٨٦). وَأخرجه مُسلم كتاب الذّكر وَالدُّعَاء بَاب اسْتِحْبَاب خفض الصَّوْت بِالذكر ح(٢٠٧٦) عَن أبي مُوسَى بِنَحْوِ لفظ البُخَارِيّ.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ح(١٣٤).

وعلى هذا الزلال الصافي انبنت إجابة إمام دار الهجرة لما سئل عن الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: يزيد وينقص[1]. وذلك في كتاب الله، فقيل له: وينقص يا أبا عبد الله؟ قال: ولا أزيد أن أبلغ هذا[2].

قال محمد بن أبي زمنين معلقاً على حديث موسى بن عقبة أن جبريل قال لرسول الله ﷺ: "ألا أعلمك دعاء..." ثم ذكر الدعاء وفي أوله: "يا نور السموات والأرض"[3]. قال محمد: فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها نبيه، وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير، فسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. لم تره العيون فتحده كيف هو كينونيته، لكن رأته القلوب في حقائق الإيمان به[4]؛ إنه منهج الإيمان ومسلك التصديق. ودرب التحري هو الذي حدا بمالك - رحمه الله تعالى - أن يحدد منهج مذهبه في التوثق ممن يتلقى عنهم العلم بتصنيفه للمشتغلين به إلى أربعة أصناف:

١. صنف يكذب في حديثه ولا يكذب في علمه.
٢. صنف جاهل بما عنده.
٣. صنف يرميه الناس بالسوء.
٤. صنف رابع، وهم الذين كانوا أهلاً لأن يُكتَب عنهم العلم في نظر مالك؛ فهم أهل التقوى والورع والصيانة والإتقان والعلم والفهم، يعرفون ما يخرج من رؤوسهم وما يصلون إليه غداً، فهم الأحرى والأجدى بالأخذ عنهم، فارتوى مالك من معينهم الثر، ونَهَل من علمهم الوافر[5].

(١) مثبتة في الأصل، ولكنني أعتقد أنها زائدة.
(٢) إرشاد السالك ص:٥١.
(٣) الكنى والأسماء للدولابي (٢/ ٦٨٥)، والمعجم الأوسط للطبراني (١/ ٥٢).
(٤) أصول السنة ص:٧٤.
(٥) انظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٤٦٧).

والسبب الذي جعل مالكاً لا يرى الأخذ عن الأصناف الثلاثة الأولى؛ أنه كان يعتقد أن العلم بالمنزلة التي توجب التحري في أخذه. يقول - رحمه الله تعالى - في ذلك: إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم[1].

بل في صريح كلام مالك أنه لا يؤخذ العلم عن أربعة، حيث قال: لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سوى ذلك: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على أحاديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحدث[2].

ولقد سار علماء المالكية الملتزمين بالسنة عقيدةً وسلوكاً في ذلك المهيع ترسماً منهم لخطى مالك الذي يرى أن السنة التي يعد التزامها مطلباً شرعياً ضرورياً؛ تتمثل في الاستقامة على طريق الحق ونهج صراط الله المستقيم الذي سلكه رسول الله ﷺ وتبعه عليه صحابته رضي الله عنهم. وبناءً على ذلك عَمِل المالكية على استسقاءِ تلك المحجة وذلك المنهاج من إمام مذهبهم ومن عاصره من تلامذته، فاختاروا الأخذ عن بعضهم لعلو أسانيدهم، واكتسبوا من آخرين منهم دماثة الخلق وحسن الروية، وعلى يدِ كوكبة منهم أخرى تفتقت مداركهم واتسعت عقولهم، فعلت منازلهم في السَّبْر المعقلَن والاجتهاد المتروي في النصوص ترجيحاً وجمعاً واستخلاصاً من غير حيرة أو جمود، بل انقياداً وتعظيماً لتلك النصوص وأخذاً بمقتضياتها والتزاماً بقدسيتها، فجمع الله للمستقيمين منهم بين رجاحة العقل وحصافة الرأي، وصلاح الأنفس، وصدق الحديث، وطيب السريرة، وبذلك استوى عود المذهب واكتمل بناؤه العلمي، وألِفَ أتباعه العلم والصبر عليه والمثابرة

(١) ذم الكلام وأهله (٥/ ٨٢).
(٢) التمهيد (١/ ٥٣-٥٤).

في سبيل تحصيله، فكانوا يختارون شيوخهم اختياراً وينتقونهم انتقاءً، تأسياً بإمامهم، كما قال عنه سفيان بن عيينة: رحم الله مالكاً، ما كان أشد انتقاءه للرجال! فهو لا يبلغ من الحديث إلا حديثاً صحيحاً، ولا يحدث إلا عن ثقات الناس[١]. كما سلكوا منهجه في تحذير الأمة من الإحداث في الدين، واستمسكوا بقوله: من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾..فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً[٢]. لقد كان قول سفيان الثوري رحمه الله حاضراً في أذهان المالكية: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، فالمعصية يتوب صاحبها لأنه يرى نفسه على ضلال، والبدعة لا يتوب صاحبها لأنه يرى نفسه على هدى[٣].

أما تعظيم المالكية لنصوص الشرع وتحريهم لسنة المصطفى ﷺ والتزامهم لها وتحذيرهم من مخالفتها؛ فهو أشهر أمرهم. متأثرين في ذلك بمؤسس المذهب؛ مستحضرين بعض ما ورد عنه في ذلك، يقول أبو نعيم: جاء رجل إلى مالك وسأله عن مسألة، فقال له: قال رسول الله ﷺ: كذا... فقال الرجل: أرأيت..؟ قال مالك: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣][٤]. وكذلك قوله في إجابته لمن سأله: من أين أُحرِم؟ قال: من ذي الحليفة، من حيث أَحرَم رسول الله - ﷺ، فقال الرجل: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر، قال مالك: لا تفعل؛ فإني أخشى عليك الفتنة! فقال الرجل: وأي فتنة في هذا؟ إنما هي أميال أزيدها رغبة في الأجر! قال مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك تأتي بفضيلة قصَّر عنها رسول الله - ﷺ؟! وإني سمعت الله - تعالى - يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٧٣).
(٢) الاعتصام ص:٦٥.
(٣) ذم الكلام وأهله (٥/ ١٢١).
(٤) حلية الأولياء (٦/ ٣٢٦).

ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣][١].

ولقد كان لقول مالك المتقدم: إياكم وأصحاب الرأي! فإنهم أعداء أهل السنة[٢] أثره الكبير في دأب أئمة المالكية على التحذير من أهل الرأي، وفي تعظيمهم لهذه النصوص. وهذا ما جعل كثيرين منهم يرثون عن الإمام مالك التزامه بالسنة وتعظيمه لها؛ إلى درجة أنه لم يكن يحدِّث أو يفتي إلا على طهارة؛ إجلالاً لأمر الله - تعالى - ورسوله ﷺ، وكان إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل وتبخر وتطيب، فإذا رفع أحد صوته في مجلسه زجره، وقال: قال الله - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾[الحجرات:٢]، فمن رفع صوته عند حديث رسول الله ﷺ؛ فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ[٣]. وتلك مزايا قادته بإذن الله تعالى إلى حسن الخاتمة؛ يقول إسماعيل بن أبي أُويس: "مرض مالك، فسألتُ بعض أهلنا عما قال عند الموت، قالوا: تشهّد، ثم قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾"[٤][الروم:٤].

وكانت سعة علمه قد مكنته من التأليف في مجالات كثيرة، وأتاحت له فرصة تنوع المؤلفات، فكان من أبرز ما أنتج يراعه كتابه: المُوَطَّأ الذي طبق الآفاق، واشرأبت له أعناق الدارسين من كل أصقاع الأرض، وهو الأمر الذي لم تتميز به بقية مؤلفاته التي يقول عنها القاضي عياض: فإنما رواها عنه مَنْ كتب بها إليه، أو سأله إياها، أو آحاد من أصحابه، ولم تروِها الكافة[٥].

هكذا هي المالكية قد طبّق أرجاء طبقاتها الأولى الصفاء المذهبي المبني على منهج السلف المؤسس على النقلِ فهماً واستدلالاً، وعلى ذلك سار كثير من علمائها في مختلف العصور.

(١) انظر: تزيين الممالك ص:١٥. وانتصار الفقير السالك ص:١٥٦.
(٢) اعتقاد أهل السنة ص:١٢٣، وحلية الأولياء (٦/ ٣٢٧).
(٣) المنتظم لابن الجوزي (٣/ ١٣١).
(٤) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ص:٤٤.
(٥) انظر: ترتيب المدارك (٢/ ٧٠-٩٠).

المنهج العلمي لأئمة المالكية:

لقد أخذ علماء المالكية عن إمامهم معايشة العلم حياة وسلوكاً ومنهجاً، حتى أقاموه في سيرهم وأخلاقهم ومعاملاتهم حياً يتراءاه الناس، ذلك أنهم ورثوا عنه قوله: حقاً على من طَلَب العلم أن يكون عليه وقار وسكينة، ويكون متبعاً لآثار من مضى[1].

كان مالك شديد الخشية لله تعالى، ولم يكن يتلقى العلم إلا عن الراسخين فيه، العاملين به، فأسس منهجاً ذا قواعد مؤصلة ودعائم راسية، ومعالم كانت نبراساً في ميدان الطلب والإفتاء والتدريس لأتباعه، فكانوا مثالاً للتأني في الأخذ، وأسوة في التثبت، ورموزاً للتحري في النقل والفتوى، فعضد صفاتهم تلك شدة حيطتهم وسرعة أوبتهم للحق، وفزع كثير منهم إلى قولِ: لا أدري حين يحيك الأمر في نفوسهم أو لا يجدون طمأنينة للجواب. مقتبسين ذلك من سيرة إمامهم العطرة؛ إذ عُرِف برفضه الباتِّ للخوض في الفرضيات والحديث عن الأرأيتيات[2]، ونبذه للحيل الفقهية، فاصطبغ منهجه بالصفاء، وخلا مذهبه من متناقضات الأفهام، وقل في متبعيه شذوذ الآراء، وانعدمت لدى المتمسكين بمنهجه متطرفات المنازع، وجافوا عوارض الأغاليط، فتكونت لديهم منهجية علمية شديدة الحساسية تجاه مخالفات السمت العلمي القائم على الإذعان للوحي والتشبث بفهوم السلف

(١) مسند الموطأ للجوهري ص: ٩٠.

(٢) مصطلح كلامي مشتق من قول القائل: (أرأيت لو كان كذا...؟).

والإعراض عن المراء والجدل، بل كان من قلد مالكاً منهم يرفض أن تكون مسائل الشريعة هدفاً لجدال المجادلين ومراء الممارين، ولم يكن مأخذهم إلا من القرآن نصاً أو عموماً أو دلالة، معتقدين أنه مشتمل على كليات الشريعة ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٣٨]، فلم يبق شيء يحتاج الناس إليه إلا واشتمل عليه هذا القرآن؛ عبارة وإشارة ودلالة واقتضاء، وأيقنوا أن السنة النبوية جاءت لبيان تلك الكليات ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤]؛ فقد بينت هذه السنة المطهرة ما في ذلك الذكرِ من الأحكام والشرائعِ وغير ذلك من أحوال القرونِ المهلَكة بأفانين العذابِ، والأمم الناجية بفضل التوحيد والاستقامة.

ونظراً لإمامة مالك في الحديث، وتعلقه بالسنة، وعلو كعبه في الفقه، وبلوغه أبعد الشأوِ في الرواية، ونفاذ البصيرة في الفتيا، والتسديد في استنباط الأحكام، وخبرته المذهلة بالمدينة النبوية وأهلها، ومراعاة منه للمدة التي احتضنت خلالها النبي ﷺ ، والوحي يصبِّحه ويمسِّيه، واكتنافها للخلافة الراشدة من بعده أيام المهديين رضي الله عنهم؛ فإن ذلك كله قد دفعه إلى اعتبار اتفاق أهل المدينة في عصره تواتراً يمثل السنة المأثورة، مما قاده إلى تقديمه على خبر الآحاد والأخذ بالقياس، كما دعاه إلى أن جعل من فتوى الصحابة -رضوان الله عليهم- مستنداً يركن إليه إن لم يجد في القرآن ولا في السنة طَلِبَتَه، وقد أتبع تلك الفتاوى بفتاوى التابعين، كما أخذ بالاستحسان المتمثل في العمل بأقوى الدليلين، عملاً على حفظ مقاصد الشرع، وكانت له عناية فائقة بالمصالح المرسلة، واهتمام بالغ بسد الذرائع، وقد كان حكمه على الوسائل تبعاً لأحكام الغايات، وكان خبيراً بمنازل الفتوى، حتى قيل: لا يُفتَى ومالكٌ في المدينة[1]. وعلى هذا المنهج بالغ النصاعة سار أتباعه، كما استمسكوا بسبيله في بعده عن المحاباة في الحق أو المجاملة فيه، فكانوا يعلون شأن الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرون ذلك سفينة نجاة المجتمع،

(١) انظر: مغني المحتاج (١/ ٣٥٦).

والسبيل إلى حفظ قيمه وأخلاقه، ذلك أن إمامهم كان ممن نالته يد البلاء في سبيل الحق.

وتشبثاً من معتنقي معتقد السلف من أتباع مالك بالأثر الذي أخرجه ابن وضاح عن أشهب قال: كان مالك رحمه الله يكره البدع حتى ما كان منها في خير[1]! ظلوا واقفين للبدعة بالمرصاد، فتأمل كيف يحكي الإمام محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف بابن خويز منداد المصري المالكي أن أهل الكلام أهلُ بدع، وأن الأشعرية منهم. كذلك نقل عنه أشهر من تشبث من المالكية بالمعارضة الشديدة لمذهب الأشاعرة: الحافظ الكبير والإمام بدون منازع أبو عمر ابن عبد البر؛ إذ يقول: حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن ثنا إبراهيم بن بكر، قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إسحاق بن خويز منداد المصري المالكي في كتاب الإجارات من كتابه في الخلاف قال: قال مالك: لا تجوز الإجارات في شيئ من كتب أهل الأهواء والبدع والتنجيم، وذكر كتباً ثم قال: وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم، وتفسخ الإجارة في ذلك، وكذلك كتب القضاء بالنجوم وعزائم الجن وما أشبه ذلك[2].

وأما أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المالكي المتوفى سنة ٤٧٤هـ فقد أوفى المكيال في نبذه للبدعة من خلال رسالته التي سماها: حكم بدعة الاجتماع في مولد النبي ﷺ، وقد أنكر فيها الاحتفال بالمولد النبوي وحكم عليه بالبدعة.

وأما أبو حفص تاج الدين عمر بن علي الفاكهاني المالكي المتوفى سنة ٧٣١هـ فلا أصرح من قوله في تبديع المحتفلين بالمولد: لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنة، ولا ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة، الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بِدعة أحدثها البطالون، وشهوة نفسٍ اغتنى بها

---

(١) الاعتصام ص: ٤٤٩-٤٥٠.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٢).

الأكالون، بدليل أنّا إذا أدرنا عليه الأحكام الخمسة قلنا: إما أن يكون واجباً، أو مندوباً، أو مباحاً، أو مكروهاً، أو محرماً. وهو ليس بواجب إجماعاً، ولا مندوباً؛ لأن حقيقة الندب: ما طلبه الشرع من غير ذم على تركه، وهذا لم يأذن فيه الشرع، ولا فعله الصحابة، ولا التابعون ولا العلماء المتدينون- فيما علمت- وهذا جوابي عنه بين يدي الله إن عنه سئلت، ولا جائز أن يكون مباحاً؛ لأن الابتداع في الدين ليس مباحاً بإجماع المسلمين. فلم يبق إلا أن يكون مكروهاً، أو حراماً[1].

وأما العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي الشهير بابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧هـ فقد قال: فإن خلا - أي عمل المولد- منه - أي من السماع - وعمل طعاماً فقط، ونوى به المولد ودعا إليه الإخوان وسلم من كل ما تقدم ذكره - أي من المفاسد- فهو بدعة بنفس نيته فقط، إذ إن ذلك زيادة في الدين ليس من عمل السلف الماضين، واتباع السلف أولى بل أوجب من أن يزيد نية مخالفة لما كانوا عليه؛ لأنهم أشد الناس اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، وتعظيماً له ولسنته ﷺ، ولهم قدم السبق في المبادرة إلى ذلك، ولم ينقل عن أحد منهم أنه نوى المولد، ونحن لهم تبع، فيسعنا ما وسعهم...[2].

وتطابقاً مع هذا الموقف يقول العلامة أبو العباس القباب أحمد بن قاسم الجذامي المتوفى بعد سنة ٧٨٠هـ عندما سئل عن أفعال ومظاهر يقوم بها المحتفون بذكرى المولد-: جميع ما وصفت من محدثات البدع التي يجب قطعها ومن قام بها أو أعان عليها أو سعى في دوامها فهو ساع في بدعة وضلالة ويظن بجهله أنه بذلك معظم لرسول الله ﷺ قائم بمولده، وهو مخالف سنته، مرتكب لمنهيات نهى عنها ﷺ، متظاهر بذلك محدث في الدين ما ليس منه، ولو كان معظماً له حق التعظيم لأطاع أوامره فلم

---

(١) المورد في عمل المولد للفاكهاني ص: ٨-٩.
(٢) المدخل لابن الحاج (٢/ ٣١٢).

يحدث في دينه ما ليس منه، ولم يتعرض لما حذر الله تعالى منه حيث قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣][١].

أما علامة المقاصد أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠هـ فقد قال عن بدعة المولد: إقامة المولد على الوصف المعهود بين الناس بدعة محدثة، وكل بدعة ضلالة، والإنفاق على إقامة البدعة لا يجوز[٢].

وأما الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد الحفار الغرناطي المتوفى سنة ٨١١هـ فقد قال: ليلة المولد لم يكن السلف الصالح وهم أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم يجتمعون فيها للعبادة، ولا يفعلون فيها زيادة على سائر ليالي السنة؛ لأن النبي ﷺ لا يعظم إلا بالوجه الذي شرع فيه تعظيمه، وتعظيمه من أعظم القرب إلى الله، لكن لا يتقرب إلى الله جل جلاله إلا بما شرع، والدليل على أن السلف الصالح لم يكونوا يزيدون فيها زيادة على سائر الليالي أنهم اختلفوا فيها؛ فقيل إنه ﷺ ولد في رمضان، وقيل في ربيع، واختلف في أي يوم ولد؛ على أربعة أقوال، فلو كانت تلك الليلة التي ولد في صبيحتها تحدث فيها عبادة بولادة خير الخلق ﷺ ؛ لكانت معلومة مشهورة لا يقع فيها اختلاف...[٣].

ولذلك لم يقبلوا أن تشرع زيادة تعظيم لم يشرعها الشارع، وقد حمل ردهم على المبتدعين في احتفالهم بالمولد النبوي استنباطاً عقلياً جميلاً؛ إذ قالوا إن يوم الجمعة "خير يوم طلعت عليه الشمس"[٤]. وأفضل ما يفعل في اليوم الفاضل صومه، وقد نهى النبي ﷺ عن صوم يوم الجمعة مع عظيم فضله، فدل هذا على أنه لا تحدث عبادة في زمان ولا في مكان إلا إن شرعت،

---

(١) المعيار المعرب للونشريسي (١٢/ ٤٩).
(٢) المعيار المعرب (٩/ ٢٥٢).
(٣) المرجع نفسه (٧/ ٩٩-١٠٠).
(٤) أخرجه مسلم كتاب الجمعة باب فضل يوم الجمعة ح(٨٥٤). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وما لم يشرع لا يفعل؛ إذ لا يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما أتى به أولها[1].

وبالجملة فقد تواترت نقول علماء المالكية في هذا المعنى، وإن شطحت جموع منهم، وجعلته عيداً كما هو حال بعض المتأخرين منهم، وهو الأمر الذي سيفتح باب اختراع الأعياد على مصاريعه؛ إذ قد يجيء قوم فيقولون عن يوم هجرة النبي ﷺ إلى المدينة إنه يوم أعز الله فيه الإسلام فينبغي أن يجتمع فيه ويتعبد، ويأتي آخرون ويزعمون الأمر نفسه عن الليلة التي أسري به ﷺ فيها؛ إذ قد حصل له فيها ولأمته من الشرف والمزايا ما لا يقدر قدره فتحدث فيها عبادة... فلا يقف ذلك عند حد، والخير كله في اتباع السلف الصالح الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، فما فعلوا فعلناه، وما تركوا تركناه، فإذا تقرر هذا ظهر أن الاجتماع في تلك الليلة ليس بمطلوب شرعاً، بل يؤمر بتركه[2].

يقول أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة ٩١٤هـ: والتعظيم له ﷺ إنما هو باتباع السنن والاقتداء بالآثار، لا بإحداث بدع لم تكن للسلف الصالح[3].

من خلال ما تقدم يتبين أن من أقوى المذاهب في مجال سد أبواب البدع، بل ومن أعظمها رداً للمبتدعات والمحدثات وإعلان الحرب عليها؛ المذهب المالكي الأصيل بثوبه القشيب قبل أن تدخل إلى فهوم بعض أتباعه الأصول الفاسدة.

---

(١) انظر: المعيار المعرب (٧/ ٩٩-١٠٠).
(٢) انظر: القيروان عبر الندوات الإسلامية ص: ١٠.
(٣) المعيار المعرب (٨/ ٢٥٥).

التزام الإمام مالك واتباعه بمنهج الصحابة ﷺ

كما سبق، تميزت - في المدينة - كوكبة من الصحابة -رضي الله عنهم- بالفقه ورجاحة العقول وسداد الآراء، وكان إمام أولئك ومركز حركتهم المحدث الفاروق عمر رضي الله عنه. وقد انتقل فقههم إلى فقهاء المدينة السبعة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وسالم بن عبد الله بن عمر. وعن هؤلاء ورث تركتهم العلمية الثرة تلاميذهم من أضراب ابن شهاب الزهري ويحيى بن سعيد الأنصاري، وزيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، ونافع مولى ابن عمر، وربيعة الرأي، وأبي الزناد... وقد ترك هؤلاء جميعهم لإمام دار الهجرة مالك بن أنس منهجاً متكاملاً علماً وعملاً، قلده فيه من سار على دربه من أتباعه. يقول ابن تيمية: وكان أهل المدينة فيما يعملون: إما أن يكون سنة عن رسول الله ﷺ، وإما أن يرجعوا إلى قضايا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويقال: إن مالكاً أخذ جُلَّ الموطأ عن ربيعة، وربيعة عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن المسيب عن عمر، وعمر محدَّث..[1].

هكذا توارث أجيال المالكية كابراً عن كابر ما بعث اللهُ جلت قدرته به رسولَه ﷺ وأنزل به كتابَه، وشرعه طريقاً بيِّنة معالِمُه، معصومة أصولُه، مضمونة نتائجه، مأمونة عواقِبُه؛ متصلٌ بالله موصلٌ إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام:١٥٣].

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣١٢).

فدربوا على الاستمساك بالوحي، والنأي عن التفيهق والتفلسف والابتداع، يقول ابن عبد البر في كتاب الشهادات في تأويل قول مالك: لا تجوز شهادة أهل البدع وأهل الأهواء، قال: أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً، ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استتيب منها[1]. وإمعاناً في تصنيف أهل البدع والأهواء يقول أبو عمر: أجمع أهل العلم من الأمصار: أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ وضلال، ولا يعدون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه، بالإتقان والميز والفهم[2].

فلا أوضح من هذا التشخيص الذي يبين بجلاء سحاقة الهوة بين المتبعين والمبتدعين، إنه سبر يؤكد أنه وإن وجدت جموع من المتأخرين خاصة قد نكبت عن مسلك مالك العقدي، رغم انضوائها ضمن المنتسبين إليه فإن ذلك ليس هو الأصل في أتباع مذهبه؛ إذ لم يكن الأصلاء من المالكية يعرفون سوى عقيدة السلف، وما دربوا إلا على الإيمان والتصديق والاستسلام والانقياد لما في الوحيين.

(١) منهج الأشاعرة في العقيدة ص:٧١.
(٢) انظر: الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية ص:٤٤.

موقف المالكية من الفتنة التي جرت بين الصحابة ﷺ

لقد تحلى علماء المالكية بسنام الإنصاف وذروة العدل في شأن الصحابة رضي الله عنهم، فلم ينبزوا أحداً منهم بسوء، بل كان ديدنهم الترضي عنهم والاعتراف بمنازلهم الرفيعة، وسابقتهم المطلقة في الخير؛ يقول هشام بن عمار: سمعت مالكاً يقول: من سب أبا بكر وعمر قتل، ومن سب عائشة - رضي الله عنها - قتل؛ لأن الله تعالى يقول فيها: ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[النور:١٧]، من رماها فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل[1].

قال الإمام القرطبي: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله، فمن نقص واحدًا منهم [يعني الصحابة] أو طعن عليه في روايته؛ فقد ردّ على الله ربّ العالمين ،وأبطل شرائع المسلمين، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ [الفتح:٢٩] الْآيَةَ. وَقَالَ: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح:١٨]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيِ الَّتِي تَضَمَّنَتِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ، وَالشَّهَادَةَ لَهُمْ بِالصِّدْقِ وَالْفَلَاحِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[الأحزاب:٢٣]. وَقَالَ: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ - إِلَى قوله- ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[الحشر:٨]، ثم قال عز من قائل: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾- إِلَى قَوْلِهِ- ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[الحشر:٩]. وَهَذَا كُلُّهُ مَعَ عِلْمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِحَالِهِمْ وَمَآلِ أَمْرِهِمْ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "خَيْرُ النَّاسِ

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي، ص:٣٨٤.

قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"(١). وَقَالَ: "لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا لَمْ يُدْرِكْ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ"(٢)(٣).

إنهم الجيل الذي نشر الإسلام بعد أن تربى على يدي سيد الأنام ﷺ، يقول ابن كثير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[الفتح:٢٩]: ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله - في رواية عنه - تكفير الروافض، الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة: فهو كافر؛ لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء على ذلك، والأحاديث في فضائل الصحابة، والنهي عن التعرض لهم بمساءة: كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم(٤). فمن البدهي أن من تنقص الصحابة رضي الله عنهم أو سبهم فقد طعن في تزكية الله تعالى لهم ورسوله ﷺ، ولا يكون ذلك إلا من نفس بلغت النهاية في الخبث؛ إذ كيف يتنقصون وقد اختارهم الله تعالى واجتباهم لصحبة نبيه ﷺ!!

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد ح(٢٦٥١). ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ح(٢٥٣٥). من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ "لو كنت متخذاً خليلًا" ح(٣٦٧٣). ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة ح(٢٥٤١). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٢).

يقول أبو الوليد بن رشد المالكي واصفاً الصحابة رضي الله عنهم أجمعين: كلهم محمود على ما فعله، القاتل منهم والمقتول في الجنة، فهذا الذي يجب على كل مسلم أن يعتقده فيما شجر بينهم؛ لأن الله تعالى قد أثنى عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله فقال عز من قائل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران:١١٠]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣]؛ أي: خياراً عدولاً، وقال رسول الله ﷺ: "عشرة من قريش في الجنة"[١]. فسمى فيهم علياً وطلحة والزبير، والذي يقول أئمة أهل السنة والحق: إن علياً رضي الله عنه ومن اتبعه كان على الصواب والحق، وإن طلحة والزبير كانا على الخطأ، إلا أنهما رأيا ذلك باجتهادهما، فكان فرضهما ما فعلاه؛ إذ هما من أهل الاجتهاد.. إلى أن قال: "والذي قلناه من أنهم اجتهدوا فأصاب علي وأخطأ طلحة والزبير هو الصحيح الذي يلزم اعتقاده، فلعلي أجران لموافقته الحق باجتهاده، ولطلحة والزبير أجر لاجتهادهما وبالله التوفيق"[٢]. وهذا هو الإنصاف والعدل في شأن سالك درب الحديث عن الذي جرى بينهم رضي الله عنهم. وإن كان الأسلم الابتعاد عن تخطيئهم، يقول أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى: ولا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به؛ إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم[٣]، وأن الله غفر لهم وأخبر بالرضا

---

(١) نقله ابن كثير في "جامع المسانيد" (١٠٦/ مسند ابن عمر) من طريق شريك، به، لكن وقع فيه: «يزيد» بدل: «شريك». وذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٢٤٢)، وقال: «رواه الطبراني بأسانيد، وأحدها رجاله رجال الصحيح». ورواه ابن سعد (٤/ ١٨٦-١٨٧)، والفسوي في "المعرفة والتاريخ" (٣/ ٨٤)، وابن عبد البر في "الاستيعاب" (ص٤٢٠)؛ من طريق عبد العزيز بن سياه، وابن العديم في "بغية الطلب في تاريخ حلب" (١/ ٢٨٩-٢٩٠) من طريق الصلت بن بهرام؛ كلاهما عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عمر، به. وجاء عند ابن سعد: «عن حبيب بن أبي ثابت قال: بلغني عن ابن عمر».

(٢) البيان والتحصيل (١٦/ ٣٦٠-٣٦١).

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ "لو كنت متخذاً خليلًا" ح(٣٦٧٣). ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة ح(٢٥٤١).

عنهم هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض[1]، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل فيه شهيداً، وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيراً في الواجب عليه؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة. فوجب حمل أمرهم على ما بيناه. ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علي بأن قاتل الزبير في النار[2]، وقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بشر قاتل ابن صفية بالنار"[3]. وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيين ولا آثمين بالقتال؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ في طلحة "شهيد" ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار، وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل؛ بل صواب أراهم الله الاجتهاد. وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم وإبطال فضائلهم وجهادهم وعظيم عنائهم في الدين رضي الله عنهم[4].

---

(١) إشارة إلى أحاديث منها ما أخرجه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٩١٥)، وفي الصحيحة (١٢٥)، من حديث جابر وأبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون في تحقيقهم لمسند الإمام أحمد: (إسناده حسن، عاصم- وهو ابن أبي النجود الكوفي- يتقاصر عن رتبة الصحيح، شيبان: هو ابن عبد الرحمن النحوي نسبة إلى "نحوة" بطن من الأزد لا إلى علم النحو. وأخرجه الطيالسي (١٦٣) عن شيبان، بهذا الإسناد. وأخرجه ابن سعد ٣/ ١٠٥، والبزار (٥٥٦) و(٥٥٩)، والطبراني (٢٢٨) و(٢٤٣) من طرق عن عاصم، به.

(٣) قال محققو مسند الإمام أحمد: إسناده حسن. زائدة: هو ابن قدامة. وأخرجه الترمذي (٣٧٤٤) من طريق معاوية بن عمرو، عن زائدة، بهذا الإسناد.
وأخرجه ابن سعد ٣/ ١٠٥، وابن أبي شيبة ١٢/ ٩٣، وابن أبي عاصم (١٣٨٩) من طريقين عن عاصم بن بهدلة، به. وانظر ما قبله. ابن صفية: هو الزبيربن العوام، أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ. وصححه الحاكم في المستدرك (٥٥٨٠)، وتبعه الذهبي في التعليق.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٢١-٣٢٢).

هكذا ينبغي أن يكون المسلم في تحفظه واحترازه من الوقوع في أعراض الصحابة، فهم أهل السابقة والفضل. يقول أبو الوليد بن رشد المالكي: تعليقاً على قول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾[الحجرات:٩] الآية، فأرادت عائشة رضي الله عنها بقولها والله أعلم: ما رأيت ما ترك الناس في هذه الآية نسبة التقصير إلى من أمسك من الصحابة عن الدخول في الحرب التي وقعت بينهم واعتزلهم وكف عنهم ولم يكن مع بعضهم على بعض، ورأت أن الحظ لهم والواجب عليهم إنما كان أن يروموا الإصلاح بينهم[١]. وهذا اجتهاد وهي أهل له رضي الله عنها، علماً وفهماً وسابقة منزلة. ولهذا كان موقف الإمام مالك - رحمه الله - حازماً في الذب عن الصحابة رضي الله عنهم ورعايته لحرمتهم، الأمر الذي دفعه بحزم إلى الوقوف في نواصي الرافضة الحانقين على السلف، فجعلهم أسوأ أهل الضلال وأشد أصحاب الزيغ؛ حيث قال رحمه الله فيما نقله عنه القاضي عياض: قال مالك: أهل الأهواء كلهم كفار، وأسوؤهم الروافض. قيل: النواصب؟ قال: هم الروافض، رفضوا الحق ونصبوا له العداوة والبغضاء[٢]. ولا شك أنهم أصحاب نواص كاذبة خاطئة، وأصحاب عمائم غطت تحتها أنواع السوء والفحشاء.

هذا وقد أخرج أبو نعيم عن عبد الله العنبري قال: قال مالك بن أنس: من تنقَّص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه عليهم غِلّ؛ فليس له حق في فيء المسلمين. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحشر:١٠]، فمن تنقصهم أو كان في قلبه عليهم غلّ فليس له في

---

(١) البيان والتحصيل (١٦/ ٣٦٠).

(٢) المدارك للقاضي عياض (٢/ ٤٩).

الفيء حق[1]، بل كان النكير من مالك - رحمه الله تعالى - على منتقصي الصحابة - رضي الله عنهم - شديداً. ذُكِر في مجلسه مرةً رجل ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ ، فقرأ مالك قول الله - تعالى -: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، فقال: من أصبح في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته الآية[2].

يقول القاضي عياض رحمه الله تعالى: وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء[3].

وقال القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣هـ: ما رضيت النصارى واليهود في أصحاب موسى وعيسى، ما رضيت الروافض في أصحاب محمد ﷺ، حين حكموا عليهم بأنهم قد اتفقوا على الكفر والباطل. فما يرجى من هؤلاء، وما يستبقى منهم؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾ [النور:٥٥]، وهذا قول صدق، ووعد حق. وقد انقرض عصرهم ولا خليفة فيهم ولا تمكين، ولا أمن ولا سكون، إلا في ظلم وتعد وغصب وهرج وتشتيت وإثارة ثائرة[4]. هذا قول ابن العربي ولم يشهد إلا شراذمهم الأولى قبل أن تغلغل العداوة في مفاصلهم ويستقر الحقد على أهل السنة في نفوسهم، فيكف به لو رأى ما استمرأته

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٢٧).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) العواصم من القواصم ص:١٨٥.

فلولهم المتأخرة من محاربة الإسلام وأهله، والتضييق على أهل السنة والتربص بهم في كل مكان!! وليس ذلك غريباً؛ فما دامت الأصول منحرفة، فلا ترجى استقامة الفروع. يقول الإمام العلامة القرطبي المالكي في تفسيره: (أما الروافض فليس قولهم مما يشتغل به ولا يحكى مثله، لما فيه من الطعن على السلف والمخالفة لسبيل المؤمنين)[1].

وقال رحمه الله:...(إلا أن يترك رجل المسح من أهل البدع من الرافضة الذين لا يمسحون وما أشبهه، فهذا لا نصلي خلفه...)[2].

وقال أيضاً: ... (وقد طعن الرافضة قبحهم الله تعالى في القرآن)[3].

وعلى هذا الموقف الفاضح للروافض المجوس المبغض لما هم عليه من الضغينة على الحق والطعن في القرآن والتطاول على أصحاب النبي ﷺ سار أغلب علماء المالكية الثابتين على المحجة، ذلك أنهم ظلوا على تعاقب حقبهم متفقين على أن الاستخفاف بالشريعة الإسلامية كفر؛ كما صرح بذلك إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي المتوفى سنة ٧٩٩هـ حين قال: فصل: ومن استخف بالقرآن أو بشيء منه أو جحده أو حرفا منه أو كذب شيئا منه ، أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك ، أو شك في شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع ، وكذلك من غير شيئا منه أو زاد فيه كفعل الباطنية والإسماعيلية ، أو زعم أنه ليس بحجة النبي ﷺ أو ليس فيه حجة ولا معجزة ، كقول هشام الفوطي ومعمر الصيمري ، أنه لا يدل على الله ولا حجة فيه لرسوله ولا يدل على ثواب ولا عقاب ولا حكم ، فلا محالة في كفرهما بهذا القول ، وكذلك بكفرهما وإنكارهما أن يكون في

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٦١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٤٠).
(٣) المرجع نفسه (١/ ٨٥).

سائر معجزات الرسول ﷺ حجة له ، أو في خلق السموات والأرض دليل على الله سبحانه لمخالفتهما الإجماع والنقل المتواتر عن النبي ﷺ باحتجاجه بهذا كله وتصريح القرآن به[1].

هكذا كانت مواقف هؤلاء الأعلام في استسلامهم للوحي، وانقيادهم لهدي السلف، وبغضهم لسريان البدع والخرافات والدجل داخل المجتمع الإسلامي ودحضهم للطرق والأهواء والنحل المنحرفة، ووقوفهم عند حتمية إثبات الحق والقول به والدفاع عنه. والتزامهم بالمنهج الربانيّ المتكامل؛ ودحضهم للطرق والأهواء والنحل المنحرفة. القائم على العدل وميزان القسط الذي نزل به الإسلام الصافي، طريقاً قوياً قاصداً موصلاً إلى تحقيق خلافة الله تعالى في أرضه، على وجه يجمع بين مرضاة الخالق وسعادة الخلق.

---

(١) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام (٢/ ٢٨٣).

ورع المالكية وإنصافهم ونبذهم للتعصب:

لقد كان مالك -رحمه الله تعالى- غاية في الإنصاف والتواضع والورع، عميق الفكرة، غائر الفقه، بعيداً عن الإعنات والتقوقع على الذات والتكلف، وما قصته في معارضة أمر الخليفة المنصور تعميمَ موطّئه إلا صفحة من تلك الصور الزاهية. يقول مالك: لما حج أبو جعفر المنصور دعاني، فدخلت عليه فحادثته، وسألني فأجبته، فقال: إني عزمت أن آمر بكتبك هذه التي قد وضعت [يعني الموطأ] فتنسخ نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يعتدوها إلى غيرها، ويدَعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدَث؛ فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم، قلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا! فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به، ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإنّ ردَّهم عما اعتقدوه شديد، فدَعِ الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم[1]، فهذا نموذج من أعظم صور التعلق بالحق والتجرد له، والبعد عن التعصب ومحبة الذات. ذلك أن العلم إذا لم يَصْحَبْهُ تصديقٌ ولم يؤازِرْهُ عملٌ وتَقْوَى لا يُسَمَّى بصيرةً، فأهلُ البصيرةِ هم أولو الألباب؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر:١٨].

(١) الموطأ، رواية محمد بن الحسن (١/ ٥).

وعلى هذا فليس غريباً أن نجد أتباع مالك بما هم عليه من الموضوعية والتعلق بالحقيقة، فقد كان منطلق المنهج العقدي المالكي نصوص الوحيين وفهم السلف الصالح الصافي من العوائد والبدع والمحدَثات والمنكرات لها، فكان الانتساب إلى المذهب المذكور انتساباً أصيلاً لأهل السُّنَّة والجماعة، وباسترجاع أسماء بعض أئمة المذهب المالكي الذين سبق في هذا البحث ورود أسمائهم يتبين مدى تمسك المالكية بمنهاج أهل السنة والجماعة.

ومن الجميل في هذا المقام أن تكون البداءة بإمامهم إمام دار الهجرة الفقيه المحدث البارع الإمام مالك بن أنس. الذي كان أحد أعلام أئمة الهدى من أهل السنة والجماعة المؤهلين لأن يُقتدى بهم في هذا الباب العظيم.

لقد مر معنا في هذا البحث أن مالكاً رحمه الله تعالى حينما سأله أحد المبتدعة عن كيفية الاستواء؟ سكت وأطرقَ حتى علته الرحضاء ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[1]. وهذا الجواب من الإمام مالك قاعدة في جميع صفات الله جل جلاله وتقدست أسماؤه. وأما تلامذة الإمام مالك فقد ساروا على منهاج النبوة، وكانوا من أئمة السلف؛ أهل السنة والجماعة، ومنهم:

- عبد الرحمن بن القاسم العتقي المتوفى سنة ١٩١هـ.
- وعبد الله بن وهب بن مسلمة القرشي مولاهم المتوفى سنة ١٩٧هـ.
- الإمام محمد بن إدريس الشافعي مؤسس المذهب المعروف باسمه والمتوفى سنة ٢٠٤هـ.
- عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعنبي المتوفى سنة ٢٢١هـ.
- وأشهب مسكين بن عبد العزيز القيسي العامري المتوفى سنة ٢٠٤هـ.

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص:٣٨.

- وبشر بن عمر الحكم بن عقبة الزهراني الأزدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ.
- وأسد بن الفرات بن سنان المتوفى سنة ٢١٣هـ.
- عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون القرشي مولاهم المتوفى سنة ٢١٣هـ.
- أبو محمد يحيى بن يحيى الليثي القرطبي حافظ الأندلس وناقل الموطأ إليها المتوفى سنة ٢٢٤هـ.
- عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي الألبيري القرطبي أبو مروان عالم الأندلس، وفقيهها في عصره، والمتوفى سنة ٢٣٨هـ.
- سحنون عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي المتوفى سنة ٢٤٠هـ.
- أبو مصعب أحمد بن أبي بكر القاسم الزهري المتوفى سنة ٢٤١هـ. وغيرهم....

لقد كانوا أئمة في سماحة، وأصحاب اتباع واقتداء في سعة أفق؛ ذلك أن إمامهم مالكاً - كما مر معنا - كان -رحمه الله تعالى- شديد النكير على المتعصبين، كامل التعلق بكتاب الله -تعالى- وسنة نبيه ﷺ وفهم السلف، نابذاً لما عارض ذلك.

ومن المأثور عنه في هذا المضمار قوله: ليس كل ما يقول الرجل -وإن كان فاضلاً- يُتَّبع، ويُجعَل سنة، ويذهب به إلى الأمصار، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[الزمر:١٧-١٨][(١)].

لقد كان مالك يحذِّر أصحابه من التعصب لقوله، أو التعلق برأيه في مواجهة النص؛ حيث قال: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي؛ فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه[(٢)]. ذلك أنه كان

(١) ترتيب المدارك (١/ ١٨٢).
(٢) الاعتصام (٢/ ٣٠١).

يرى أن صلاحَ خَلَفِ الأمة لا يكون إلا بانتهاج ما كان عليه سَلَفُها من التمسك بالكتاب والسنة، ولذلك قال: لا يُصلِح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها[1].

ولقد كانت محبة السنة النبوية والذود عنها والسعي إلى حفظها؛ أحد أهم الأسباب التي دفعت مالكاً إلى تصنيف موطئه الذي توخى فيه اختيار أقوى أحاديث أهل الحجاز ممزوجة بأوثق ما نُقِل من أقوال الصحابة، محشوّة بأصوب فتاوى التابعين، من غير انتصار لرأي، أو نبذ لحقيقة، أو رفض لحجة راجحة.

وقد ورث عن مالك كبراء علماء المالكية هذا المنهج، فذموا التعصب ووسموه بكل نعوت القبح. يقول أبو العباس المقري، وهو من كبراء علماء المالكية: قد ضل بعض الناس، فحمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز في حق العلماء الذين هم نجوم الملة[2]، بل عد المقري معارضة النصوص بأقوال الرجال من أشنع أنواع التعصب وأبشع صنوف التنكيب عن مَهْيَع الحق، فذكر جملة من القواعد الفقهية تعد جواهر في هذا الخضم، حيث يقول: قاعدة: لا يجوز رد الأحاديث إلى المذاهب على وجه ينقص من بهجتها، ويذهب بالثقة بظاهرها؛ فإن ذلك إفساد لها وغضٌّ من منزلتها، لا أصلح الله المذاهب بفسادها، ولا رفعها بخفض درجاتها، فكل كلام يؤخذ منه ويرد إلا ما صح عن رسول الله ﷺ[3].

ولتصويب التصور وردع الغلو المذهبي؛ يطالعنا بقاعدة أخرى نحن أحوج ما نكون إليها في هذا الزمان الذي استشرى فيه التعصب المذهبي، والتعلق بآراء الرجال، بعيداً عن أي مستند من الوحي، فيقول: قاعدة: لا يجوز التعصب للمذاهب، بالانتصاب للانتصار بوضع الحِجَاج وتقريبها على الطرق الجدلية، مع اعتقاد الخطأ

(١) الرد على الجهمية ص:١٢.
(٢) نفح الطيب (٢/ ٥٢١).
(٣) قواعد المقري (٢/ ٣٩٦).

والمرجوحية عند المجيب كما يفعله أهل الخلاف، إلا على وجه التدريب على نصب الأدلة والتعلم لسلوك الطريق بعد بيان ما هو الحق؛ فالحق أعلى من أن يُعلَى عليه وأغلب من أن يُغلَب[١].

وهكذا نجد النظرة نفسها عند الإمام القرافي حين يبين مسلكه في كتابه الذخيرة قائلاً: وقد آثرت التنبيه على مذهب المخالفين لنا من أئمة المذاهب الثلاثة ومآخذهم في كثير من المسائل؛ تكميلاً للفائدة، ومزيداً في الاطلاع؛ فإن الحق ليس محصوراً في جهة؛ فيعلم الفقيه أي المذهبين أقرب للتقوى، وأعلق بالسبب الأقوى[٢].

وهذا الإمام الشاطبي يبين أسباب التعصب المذهبي ومضاره، وأنه خروج على منهج السلف، فيقول: ولقد زلّ بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال أقوام، خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين، واتبعوا أهواءهم بغير علم؛ فضلّوا عن سواء السبيل[٣].

والخلاصة: أن الإمام مالكاً من أجل علماء الأمة قدراً، وأكثرهم تعلقاً بالدليل، وأوضحهم مسلكاً، وأنصعهم عقيدة، وأبعدهم عن التعصب لرأيه أو رأي غيره، ولم يكن يترك الدليل ليعارضه بآراء الرجال، وكذلك كان كبار علماء المالكية الذين ائتسوا به؛ إذ كانوا من أشد الناس نأياً عن الارتماء في أتون التعصب. لما رأوا فيه من التعارض مع المنظومة الإسلامية، ومقت العقول السليمة لما يُفضي إليه من التهارش المؤدي إلى تمزق كيان المجتمع الإسلامي، وفُشوّ المشاحنة والبغضاء والإعراض عن الوحي، وهو الأمر الذي يتعارض مع نصوص كثيرة، ظلت تدعو إلى الألفة والمحبة ونشر الإخاء على الحق، كقول الله جل ذكره: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا

---

(١) المرجع نفسه (٢/ ٣٩٧). وانظر: د. محمد المختار المامي، المذهب المالكي: مدارسه ومؤلفاته ص:٥١٨.

(٢) الذخيرة (١/ ١٣٥).

(٣) الاعتصام (٢/ ٣٠٢).

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]. وقد ذكر النبي ﷺ أن دخول المؤمنين الجنة مشروط بتحابُبِهم، كما نقل عنه الزبير بن العوام رضي الله عنه: "دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء، والبغضاء: هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده -أو والذي نفس محمد بيده- لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم، أفشوا السلام بينكم"[1].

ولا أدعى لتفكك عرى المجتمع من اتباع الهوى والتعصب للرأي ومقت الدليل والإعراض عن الحق.

فالأصل الضامن للنجاة يتمثل في التزام المحجة البيضاء التي تركَنا عليها رسول الله ﷺ، تلك المحجة السالكة التي سار عليها أئمة السلف كمالك وغيره من الأئمة المقتدى بهم والتابعين لهم بإحسان، رحمهم الله جميعاً.

أعاشنا الله على مِلَّة محمد ﷺ ما عشنا، وأماتنا عليها إذا متنا.

---

(١) إسناده ضعيف لجهالة مولى آل الزبير، ومع ذلك فقد جود إسناده الحافظ المنذري في "الترغيب" ٣/٥٤٨، والهيثمي في "المجمع" ٨/ ٣٠! عبد الرحمن: هو ابن مهدي. وأخرجه ابن عبد البر في "التمهيد" ٦/ ١٢١ من طريق موسى بن معاوية، عن عبد الرحمن بن مهدي، بهذا الإسناد. ولم يذكر فيه الزبير بن العوام.
وأخرجه الطيالسي (١٩٣)، والترمذي (٢٥١٠)، والبيهقي في "الشعب" (٨٧٤٧) من طريق حرب بن شداد، به. وسقط من "مسند الطيالسي" الزبير بن العوام.
وأخرجه البيهقي في"السنن" ١٠/ ٢٣٢، و"الشعب" (٦٦١٣) من طريق معتمر بن سليمان، عن أبيه، عن يحيى بن أبي كثير، به. لم يذكر فيه الزبير أيضاً.
وأخرجه البزار (٢٠٠٢) من طريق موسى بن خلف، عن يحيى بن أبي كثير، عن يعيش، عن مولى لابن الزبير، عن ابن الزبير، أن رسول الله ﷺ... قال البزار: هكذا رواه موسى بن خلف، ورواه هشام صاحب الدستوائي، عن يحيى، عن يعيش، عن مولى للزبير، عن الزبير.

وإليك أخي القارئ بعض الكتب التي ورّثها يراع المالكية، وحملت وإن إيماء معتقدهم، هذه الكتب التي تتربع على عرشها تركة إمام دار الهجرة:

١ - رسالة لابن وهب في الرد على القدرية.

٢ - رسالة في الأقضية، كتب بها إلى أحد القضاة.

٣ - رسالة في الفتوى.

٤ - رسالة إلى خليفة المسلمين هارون الرشيد في الآداب والمواعظ. وقد طُعن في نسبتها إليه[١].

٥- رسالته في إجماع أهل المدينة إلى الليث بن سعد[٢].

٦ - كتاب في التفسير لغريب القرآن.

أما المتون التي أنتجتها العبقرية المالكية في هذا الميدان أو جاءت شاهدة على سلامة منهج المستقيمين منهم، فمن أهمها:

١. أصول السنة للإمام ابن أبي زمنين. وقد حققه الدكتور عبد الله البخاري، وطبع طبعته الأولى عام ١٤١٥هـ من قبل مكتبة الغرباء الأثرية.

٢. أصول في البدع والسنن تأليف محمد أحمد العدوي العالم المصري الأزهري وهو تلخيص لكتاب الاعتصام للشاطبي.

٣. إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة للشيخ محمد الكي الناصري، تحقيق مصطفى باحو .

٤. الاعتصام تأليف إبراهيم بن موسى الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠هـ.

٥. البدع والحوادث تأليف ابن وضاح الأندلسي المتوفى سنة ٢٨٧هـ.

٦. تنبيه الخلف الحاضر على أن تفويض السلف لا ينافي الإجراء على الظاهر،

---

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٩٣).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٩٤).

للإمام بداه بن البوصيري الشنقيطي المالكي المتوفى سنة ١٤٣٠هـ.

٧. جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة للدكتور إبراهيم التهامي.

٨. الحسام الماحق لكل مشرق ومنافق للشيخ تقي الدين الهلالي المالكي.

٩. خطبة السلطان المولى سليمان في الانتصار للسنة و الرد على الطوائف الضالة، تحقيق: العلامة محمد تقي الدين الهلالي. مطبعة الساحل بالرباط.

١٠. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

١١. الرسالة المختصرة في مذاهب أهل السنة، له أيضاً.

١٢. الزجر والإقماع بزواجر الشرع المطاع لأبي عبد الله محمد بن المدني كنون.

١٣. سبل الرشاد في هدي خير العباد من تأليفه أيضاً.

١٤. السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها لأبي عمرو الداني الأندلسي.

١٥. عقود السنة منتقى من الأرجوزة المنبهة للإمام أبي عمرو الداني، تحقيق: الدكتور الحسن وجاج، رسالة دكتوراه.

١٦. عقيدة التوحيد الكبرى للشيخ محمد المكي بن عزوز المالكي المغربي ت ١٣٣٤هـ، تحقيق: الدكتور محمد رشيد بو غزالة السوفي. الطبعة الأولى لمؤسسة الريان سنة ١٤٢٩هـ.

١٧. عقيدة الإمام مالك لمصطفى باحو.

١٨. عقيدة الإمام مالك للمغراوي.

١٩. علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم للشيخ مصطفى باحو.

٢٠. كتاب الأمالي في النقض على الغزالي لمحمد بن خلف الإلبيري.
٢١. كتاب الجامع لابن أبي زيد القيرواني، وقد احتوى على أبواب في المعتقد.
٢٢. مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل له أيضاً.
٢٣. مقدمة الرسالة لابن أبي زيد القيرواني.
٢٤. مقدمة كتاب الجامع في السنن، تحقيق: عبد المجيد تركي، وقد طبعته دار الغرب الإسلامي الطبعة الثانية سنة ١٩٩٠م.
٢٥. مقدمة كتاب مفتاح التفقه الأصيل في شرح مختصر هدي الجليل في العقائد وعبادة الجليل للعلامة محمد تقي الدين الهلالي، مكتبة الصحابة الإمارات الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ. وإن خرج الهلالي في آخر حياته عن الانتساب إلى المذهب المالكي؛ فذلك لا يغيب أن قاعدته العقدية قد تأسست في دائرته.
٢٦. منظومة التحذير من البدع للأندزالي، وقد أخذها من كتابه: تنبيه الإخوان على ترك البدع و العصيان، تحقيق: محمد ستيتو. جامعة محمد الأول، وجدة. مع نسخة راجعها محمد الأمين بوخبزة.
٢٧. المورد في عمل المولد للشيخ أبي حفص الفاكهاني، تحقيق: علي الحلبي، مكتبة المعارف بالرياض الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ.
٢٨. نظم القيروانية للشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي. من كتاب: قطف الجنى الداني للشيخ عبد المحسن العباد.
٢٩. الوصول إلى معرفة الأصول في مسائل العقود في السنة لأبي عمر أحمد بن محمد المعافري الطلمنكي.
٣٠. مشتهى الخارف الجاني على زلقات التجاني الجاني للعلامة محمد الخضر بن ما يأبى.

وغيرها كثير...

الخاتمـــة

إن المستعرض لجانب من حياة الإمام مالك يرى أنه كان قَمِناً بوراثة علم سلفه، وأن المذهب الذي ينسب إليه كان قد تأسس قبله، وأقيمت أصوله وقواعده، فلم يزد أن التزم به واجتهد في إطاره، وعبارات الموطأ كافية لتوضيح ذلك، فليس قول مالك في كتابه المذكور: والأمر المجتمَع عليه عندنا...، أحسن ما سمعت...، الأمر عندنا...، هذا أحب ما سمعت...، الأمر ببلدنا...، الذي أدركت عليه الناس...، أدركت أهل العلم...، سمعت أهل العلم...، السُّنَّة عندنا...؛ ليست هذه العبارات إلا اعترافاً صارخاً بانتهاء مالك لمذهب سلفي قد استقرت أعلامه واستتبت أسسه، وتسلسلت حلقاته، يورثها جيل لمن بعدهم، حتى جمع أزِمَّتها إمام دار الهجرة، وخلفها من بعده للمنتسبين حقيقة إلى مذهبه.

وهذا ما أدى إلى نصاعة المذهب المالكي، وقاد الخيرين من أتباعه إلى الاقتداء بمذهب السلف عقيدة وسلوكاً، فتمسكوا بذلك المذهب الذي تركنا عليه المصطفى ﷺ لنصل به إلى دار الجِنان، إنه المهيع البيِّنُ الذي لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ،

قال ﷺ: "تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِها لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلاَّ هَالِكٌ"[(١)].

لقد ورث أئمة المالكية عن إمامهم قوة التزامه بمنهج الصحابة رضي الله عنهم، ذلك الذي قاد الإمام الشافعي إلى القول: رضيت بمالك حجة بيني وبين الله[(٢)]؛ لما رأى فيه من حب السنة، واتباعه لأثر النبي ﷺ، واهتدائه بهدي الصحابة رضي الله عنهم، وكثرة ورعه وخشيته لله تعالى، وبُعده عن البدعة ودحضه للشبهة.

وكذلك يكون أهلُ الفلاح الذين جعل الله لهم لسانَ صِدْقٍ في العالمين، ومقامَ إحسانٍ في العِلّـيِّين؛ إذ يسيروا على سبيل الرشاد الذي تركهم عليه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم. بل إنهم مستسلمون للوحي منقادون له، يزهون بتسمية الله تعالى لهم بـ «المسلمين»؛ ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الحج:٧٨]؛ لأنّ هذه التسميةَ جاءت مطابقةً

(١) حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن، عبد الرحمن بن عمرو السلمي روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وقال الذهبي في "الكاشف": صدوق، وقد صحح حديثه الترمذي، والحاكم، والذهبي، وأبو نعيم فيما نقله ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" ٢/ ١٠٩، والبزار فيما نقله ابن عبد البر في "جامع بيان العلم" ص٤٨٣، وابن عبد البر. وثمة طرق أخرى للحديث، وباقي رجاله ثقات. وأخرجه الحاكم ١/ ٩٦ من طريق الإمام أحمد، بهذا الإسناد. وأخرجه ابن ماجه (٤٣)، وابن عبد البر في "جامع بين العلم" ص٤٨٢ من طريق عبد الرحمن بن مهدي، به. وأخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (٣٣) و (٤٨) و (٥٦)، والطبراني في "الكبير" ١٨/ (٦١٩)، وفي "مسند الشاميين" (٢٠١٧)، والآجري في "الشريعة" ص ٤٧، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم" ص٤٨٢ من طريقين عن معاوية بن صالح، به.

وله طريق ثانية عند ابن أبي عاصم (٢٨) و (٢٩) و (٥٩)، والطبراني ١٨/ (٦٢٣)، أخرجاه من طريقين عن أبي اليمان الحكم بن نافع، عن إسماعيل ابن عياش، عن أرطاة بن المنذر، عن المهاصر بن حبيب، عن العرباض بن سارية، وهذا إسناد حسن إن ثبت سماع المهاصر من العرباض، فقد ذكره ابن حبان في "أتباع التابعين"، غير أن ابن أبي حاتم ذكر في "الجرح والتعديل"٨/ ٤٣٩-٤٤٠ أن له رواية عن أبي ثعلبة الخشني، وهذا يعني أنه من التابعين، فيكون متصل الإسناد، ونقل عن أبيه قوله فيه: لا بأس به. وإسماعيل بن عياش صدوق في روايته عن أهل بلده، وهذه منها.

وله طريق ثالثة عند ابن ماجه (٤٢٠)، وابن أبي عاصم (٢٦) و (٥٥)، والطبراني في "الكبير" ١٨/ (٦٢٢)، والحاكم ١/ ٩٧ أخرجوه من طريق يحيى ابن أبي مطاع، عن العرباض بن سارية، به. ويحيى بن أبي مطاع، وإن صرح بالسماع من العرباض بن سارية، واعتمده البخاري في "تاريخه".

(٢) التهذيب (١٠/ ٨).

لما كانوا عليه من التزامهم بالإسلام المصفّى عقيدةً وشريعةً، فلم يكونوا بحاجةٍ إلى تسميةٍ خاصّةٍ إلاّ ما سمّاهم اللهُ به تمييزًا لهم عن جنس أهل الكفر والضلال.

وهكذا يكون من استمسك بالهدي النبوي وجعله نبراسه، فلا غلو له في النبي ﷺ، ولا زعم له بنسبة علم الغيب إليه، وهو يسمع الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]. وقلبه قبل سمعه يشنفه قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف:١٨٨]. ويتوارد عليه ما نقلته الرُّبيِّع بنت معوِّذ رضي الله عنها حين قالت: دخل عليَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم غداة بني علي فجلس على فراشي كمجلسك مني، وجويريات يضربن بالدُّفِّ يندُبن مَن قُتل من آبائهن يوم بدر، حتَّى قالت جارية: وفينا نبيٌّ يعلمُ ما في غد، فقال النَّبيُّ ﷺ: "لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين"(١).

لم يمنع النبي ﷺ من إنكار المنكر صغر الجواري، ولا أمنه من تأثُّر الصَّحابة رضي الله عنهم، لكن حمايته لجناب التَّوحيد وإرساءه لمبدأ الحسبة قاده إلى المسارعة بإنكار المنكر ولو كان ممن لا تأثير له، والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

وعلى ذلك سار الركب الذين لحقت بهم سفينة الإمام مالك ومن سلك دربه. فكانوا من أكثر الأقوام تشبثاً بعقيدة السلف الصالح.

ولهذا لم يكن جهابذتهم الكبار أشاعرة؛ بل كانوا أئمة سلف، لهم منزلتهم الرفيعة بين أهل السنة والجماعة، مع العلم أن بعضهم سبق وجود أبي الحسن الأشعري، ولكننا نذكرهم في إطار التسلسل على وجه الإجمال للتدليل لا الحصر.

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب ضرب الدف في النكاح والوليمة ح(٥١٤٧).

كما هي الحال بالنسبة لـ:

علم المالكية العلامة الحبر عبد الملك بن حبيب السلمي صاحب الواضحة، حفيد الصحابي الشاعر البطل العباس بن مرداس رضي الله عنه، المتوفى سنة ٢٣٨هـ.

وإمام المالكية في زمانه قاضي بغداد الإمام المشهور إسماعيل بن إسحاق الجهضمي الأزدي القاضي المتوفى سنة ٢٨٢هـ، وهو أحد أحفاد الإمام الثبت حماد بن زيد.

وكان هذان الإمامان الجليلان ممن وضع اللبنة التأسيسية قبل استشراء العقيدة الوسطى لأبي الحسن الأشعري، وعلى ذلك نهج المقتفون؛ كإمام المالكية في زمانه الذي كان يُقال له مالك الصغير الإمام عبد الله بن أبي زيد القيرواني، المتوفى سنة ٣٨٦هـ والإمام الحجة أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي المتوفى سنة ٣٩٩هـ. وإمام المالكية في العراق في زمانه القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي أبي محمد، المتوفى سنة ٤٢٢هـ.

والإمام العلامة أبي عمرو أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي، بحر العلوم، الإمام المقرئ المحدث المفسر، المتوفى سنة ٤٢٩هـ.

والإمام المقرئ الكبير الحافظ أبي عمرو عُثْمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤هـ.

وحافظ المغرب في زمانه إمام الأندلس بل المغرب الحجة العلامة أبي عمر ابن عبد البر النمري الأندلسي المالكي المتوفى سنة ٤٦٣هـ

والإمام أبي الفتح محمد بن أبي الحسن علي بن أبي العطاء القشيري المعروف بابن دقيق العيد المالكي الشافعي، المتوفى سنة ٧٠٢هـ.

وأما معاصرو المالكية ممن وفقهم الله لاتباع مذهب السلف الذي كان عليه

الإمام مالك وغيره من أئمة الهدى؛ فكثير ولله الحمد.

كالإمام محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان رحمه الله وغيره كثير ولله الحمد.

فقد درجوا على عقيدة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، التي أشاد عليها مالك بناء منهجه العقدي؛ فأسسه على نصوص الوحيين، متبعاً لا مبتدعاً، بل كان لا يتجاوز فهم الصحابة والتابعين لهم بإحسان -رضي الله عنهم- لتلك النصوص إن وجده، بعيداً عن القول بغير علم أو التخرُّص من غير بينة. ولكن من التناقض الغريب والانحراف العجيب مخالفة بعض المالكية اعتقاد الإمام مالك، وتمسكهم بالعقيدة الوسطى لأبي الحسن الأشعري، تلك العقيدة التي رجع عنها من نسبت إليه، وسعى في إبطالها. فهذا حقيقةً هو التناقض المعيب، المخالف لما كان عليه الإمام مالك بن أنس في نصاعة عقيدته ونقاوتها من شبهات الشرك ولوثات الابتداع.

يقول الإمام العلامة شيخ الحرمين أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي الشافعي في كتابه: الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاماً لذوي البدع والفضول: وقد افتتن خلق من المالكية بمذاهب الأشعرية، وهذا والله سُبَّـةٌ وعار، وفلتةٌ تعود بالوبال والنكال وسوء الدار، على منتحلِ مذاهب هؤلاء الأئمة الكبار، فإن مذهبهم ما رويناه من تكفيرهم الجهمية والمعتزلة والقدرية والواقفية وتكفيرهم اللفظية[1].

هكذا الأصل في اعتقاد المالكية، الذين استطاع مذهبم أن يرسخ عقيدة تقوم على أساس سليم، شكلت معالمه ركائز قام عليها الفقهاء والأمناء من أتباعه، فكانوا يحضون الناس على انتهاج مذهب السلف في الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل.

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٧٧).

قال ابن أبي زمنين في كتابه رياض الجنة بتخريج أصول السنة: باب في الحض على لزوم السنة واتباع الأئمة: اعلم رحمك الله أن السنة دليل القرآن، وأنها لا تدرك بالقياس ولا تؤخذ بالعقول، وإنما هي في الاتباع للأئمة ولما مشى عليه جمهور هذه الأمة، وقد ذكر الله عز وجل أقواماً أحسن الثناء عليهم فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٧-١٨]، وأمر عباده فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣](١).

قال ابن وهب: كنا عند مالك فذكرت السنة فقال مالك: السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق(٢).

كذلك كان منهج إمام دار الهجرة قائماً على التعلق الشديد بصراط الصحابة -رضوان الله عليهم- معظماً لما كانوا عليه، مستقيماً على منهجهم، ويرى كل السوء والفحشاء في تنقُّصهم والنيل منهم. وعلى ذلك دأب المنصهرون في بوتقة مذهبه. ولقد يذم الخروج عن سبيلهم، ويعيب التنكيب عن أمرهم ويعده عاراً على متبنيه؛ لأنهم الفرقة الناجية، التي وصفها النبي ﷺ فقال: "إِن بَني إِسرائيلَ افْتَرَقُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ مِلَّة، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلها في النَّارِ إلا مِلَّة واحدة" فقيل له: ما الواحدة؟ قال: "مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيومَ وَأَصْحَابي"(٣)،

---

(١) أصول السنة ص:٣٥.

(٢) ذم الكلام وأهله (٥/ ٨١).

(٣) ورواه الترمذي (٢٦٤١) من طريق أبي داود الحفري، والآجري في "الشريعة" (٢٤)، وابن بطة في "الإبانة" (٢٦٥/ كتاب الإيمان) ؛ من طريق محمد بن يوسف الفريابي، والحاكم (١/ ١٢٨-١٢٩)، واللالكائي في "اعتقاد أهل السنة" (١٤٦) ؛ من طريق ثابت بن محمد، والأصبهاني في "الحجة في بيان المحجة" (١٧) من طريق عبد الرحمن بن مهدي. وحسنه الألباني في تعليقه على الترمذي.

وهم منبع الطائفة المنصورة المتجددة، كما قال النبي ﷺ: "لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَذَلِكَ»[1]، وهم أصل السُّنَّة والجماعة، الذين قال عنهم النبي ﷺ: "يَدُ الله مَعَ الجَمَاعَةِ"[2].

لكن ما أحدثه الناس بعدهم في الإسلام من حوادث وبدع وغيرها ممَّا ليس من منهاجهم رضي الله عنهم، وإنما ابتدعه من سلك طرق الزيغ والضلال، فتفرّقت به عن سبيل الحقّ وصراطه المستقيم، الذي اقتضت حال منتهجيه لزوم ما صدر عن مشكاة النبوة. فدعت الحاجة إلى تسميتهم بما يطابق واقعهم من وَصف النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم لهم بالفرقة الناجية؛ ليتميّزوا عن سُبُل أهل الأهواء والبدع، فيستبين أهل الهدى من أهل الضلال، ويعلم أهل الإسلام المتقيدين بما شرعه الله لعباده مجرّدًا عن الشركيات والبدعيات، وخاليًا من الحوادث والمنكرات عقيدة ومنهجاً.

أسأل الله - تعالى - أن يوفقنا إلى نهج السبيل الأقوم، وأن يأخذ بنواصينا إلى الحق، وأن يجعلنا من أهل البر والتقوى الملتزمين بصراطه المستقيم.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

وكتبه

د. أحمد محمد ذي النورين

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الاعتصام باب قول النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم" ح(٧٣١١). ومسلم كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم" ح(١٩٢١).

(٢) أصله في صحيح مسلم (١٨٥٢) في كتاب الإمارة: باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، والنسائي ٧/ ٩٢-٩٣، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني"، وأحمد ٤/ ٢٦١ و٣٤١ و٥/ ٢٣، وعبد الرزاق ٢٠٧١٤، والطبراني ١٧/ ٣٥٤ و٣٥٥ و٣٥٦ و٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩ و٣٦٠ و٣٦١ و٣٦٢ و٣٦٣ و٣٦٤ و٣٦٨ من طرق عن زياد بن علاقة، بهذا الإسناد، وصححه الحاكم ٢/ ١٥٦.

فهرس الموضوعات

الموضــــــــــوع	رقم الصفحة
مقدمة	٥
قيام المجتمع المدني على التوحيد	٧
نشأة المذهب المالكي على التوحيد	١٩
اعتصام المالكية بالسنة وشدة تحرِّيهم في نقلها:	٥٤
المنهج العلمي لأئمة المالكية	٦٣
التزام الإمام مالك وأتباعه بمنهج الصحابة ﷺ	٦٩
موقف المالكية من الفتنة التي جرت بين الصحابة ﷺ	٧١
ورع المالكية وإنصافهم ونبذهم للتعصب	٧٩
الخاتمـــــة	٨٨
فهرس الموضوعات	٩٥